الحياة الأدبية عند العرب
قبل الاسلام

بينى وبين الاستاذ
محمد فريد وجدى

بقلم

صادق ابراهيم عرجون

المدرس بمعهد طنطا

رأس مال العالم كرامته العلمية
فهو فى خير وبركة ماصانها
صادق

(طبعت بمطبعة الارشاد) لصاحبها امين الجزيرى

سنة ١٣٥٥ هـ ١٩٣٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة . من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا . اللهم إنى أستمنحك الثقة بك والاعتماد عليك ، واستمد منك قوة على تأييد الحق . أنت حسبي ونعم الوكيل . أحمدك حمدا يوافي نعمك ، ويكافىء مزيدك ويدافع نقمك . وأسألك أن تصلى على محمد عبدك ورسولك المجتبي من خير أرومة ، والمصطفى من صفوة الانسانية ، وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهداهم من المؤمنين .

أما بعد : فهذه قضية من قضايا البحث العلمى أقدمها بين يدى محكمة العدل الكبرى ، والتفكير الحر الذى لايخضع إلا لسطوة الحق ، وقوة الدليل متوخيا فيها عرض الموضوع تقدمه الحجة فى وجه الحجة غير آبه لما يحتف به من صيت واسع للاستاذ الفاضل « محمد فريد وجدى » الذي اتجاذب معه أطراف البحث ، وهو رجل طويل العهد بالدرس ومعالجة الكتابة ، تعرف إلى قراء العربية منذ أزمان بعيدة المدى . لأن اليقظة الفكرية التى تسود النهضة الثقافية فى الشرق العربي تأبى على العقول النيرة أن تدغمر فى حمأة التقليد مهما كانت مظاهر منشئه ، وتتعاظم عن خذلان الحق بلحن القول ، مؤثرة الفقه

لما تقرأ ، والفهم لما تسمع ، تأسيا بقول الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه :

«لا يكن أحدكم إمعة يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم» واقتداء بقول الفاروق في دستوره القضائى إلى أبي موسي الاشعرى رضي الله عنهما : «فافهم إذا أدلى اليك» . وإنى مطمئن الى النصفة ، واثق بنصرة الحق ، مؤمن بتأييد الله وصدق وعده (والله يقول الحق وهو يهدى السبيل)

منشأ البحث

أتاح الله لى سبيل كتابة بعض البحوث العلمية والأدبية في « مجلة الأزهر » فأخذت نفسى في كتابتى بأسلوب تحليلى يساير طرائق البحث العلمى الذى لايذعن للتقليد ، ولا يطمئن الى التسليم لشىء إلا إذا أيده العقل المستقيم ، وعززه التاريخ الصحيح ، وصادقته الحجة النيرة ، وهذا نحو من النظر يخاله الذين أغرموا بالتميز عن الناس جديدا ، ولكن من مرنوا على التأمل في مهيع الاسلام ، وتفقهوا فى مذهب القرآن الحكيم وإرشاداته ، وتفهموا تعاليمه وآدابه ، وتأملوا أنحاءه فى كشفه عن أعوص الحقائق الكونية ، علموا أن هذا هو طريق الاسلام الأقوم ، ومذهب القرآن الأحكم ، فليس بدعا أن يذهب باحث نهد فى معاهد الاسلام ، ونهل من معين القرآن ، مذهب الاسلام ، ولكن بدعا من البدع أن يحيد هذا الباحث فى بحثه عن طرائق الاسلام .

ومن ثم كنت مؤمنا أشد الايمان أنى إذا محصت حقيقة من الحقائق العلمية أو الأدبية وجليتها للناس على نهج البحث التحليلى العلمى فانما استن سنة فى البحث معهودة لأسلافى من علماء الاسلام ، وكان أحب شيء لدى أن أقرأ نقدا لما أكتب يهدي الى صواب فاتنى ، أو ينبه على خطأ زحمنى .

عندما أردت أن أكتب في « الأدب » فكرت فى أن الأدب العربي قد هوجم من جمهرة المستشرقين ، ومن بعض الباحثين المعاصرين من قومنا ، مهاجمة مسته مسا عنيفا في أساسه ؛ وتطايرت الشكوك حوله ، وغالى نفر فأنكروه إنكارا لاهوادة فيه ، فرأيت أن ليس من الانصاف أن يغمض الباحث عينيه عن تلك التشكيكات ، وأن يصم أذنيه عن صيحة الانكار ، وقد طوفت بأذهان كثرة من الشباب المثقف في الشرق والغرب ، بل يجب أن نعطى لتلك التشكيكات حظها من النظر وفاء لحق البحث ، وأن نسمع الى مبعث صيحات الانكار لنعلم ماتعتمد عليه من حجة أو شبهة ، فكان أول ماسبق الى من بحوث « الأدب » النظر فى كلمة « أدب » وأولية نشوئها ، وأطوارها ، ومعانيها فى حقيقتها ومجازها ، وهنا تكشفت لى حقيقة من الحقائق الجليلة ، وهى أن فنوننا العربية ، ومعارفنا اللغوية ينقصها فن من أهم الفنون ، لو تسنى له أن يتنسم نسمات الوجود لأغنانا عن كثير من البحوث ، ولدفع بنفسه تلك الشبه التى حامت حول تاريخ الأدب العربى . ذلك الفن هو فن « تاريخ الألفاظ فى اللغة العربية » فكتبت أول مقال فى هذا الموضوع قلت فى ديباجته : « هذا فن من العلم قد يكون جديدا على اللغة العربية . أو على الأقل غير معروف فى مباحثها . وهى فى أشد الحاجة إليه . فيجب أن يوجد وأن يعرف لما له من عظيم النفع وجليل الفائدة فى تحديد الكلمات بأوقاتها التي استعملت فيها . وتميز أصل الوضع من طارئه . ومولده ودخيله من عربيه . وحقيقته من مجازه . وفى ذلك إرشاد الى أطوار الحياة فى الأمة»

الى أن قلت : « فحاجة اللغة العربية الى (فن تأريخ الألفاظ) وتتبع أطوارها واستعمالاتها كبيرة جدا . فهو واجب عينى على المجمع اللغوى . وفرض كفائي على الجماعات الأدبية المشتغلة ببحوث اللغة .

« وإذا كان القدامى من أئمة اللغة لم يعنوا بهذا الطرز من البحث ، لأن الحاجة لم تكن عندهم ماسة اليـه ، أو لأنهم كانوا على علم بتمييز الدخيل من العربى لقرب عهدهم باللغة في معاهد الجزيرة أو لأى سبب آخر ، فحاجتنا نحن اليه شديدة ، ولأن هذا الفن يساعدنا مساعدة فعالة على الكشف عن تاريخ العرب الأدبى والاجتماعى والدينى قبـل الاسلام ، إذ الاعتماد على روايات التاريخ القصصية أصبح شيئا لا يمكن التعويل عليه في معرفة الحقائق ، ولأننا هوجمنا من طريقه ، فأنـكر بعض الباحثين أن يكون للعرب حياة أدبية قبل الاسلام ، لأن لغتهم لم تعرف كلمة « أدب » إلا بعد مجيء الاسلام ، فلو كان لدينا هذا الفن قائم القواعد لتفادينا هـذا الجدل العقيم . ولخطونا بالأدب العربى خطوة أوسع تبوئه مكانا عليا بين الآداب الناهضة الحية » (١)

---

(١) من الحق على لنفسي أن اسجل هنا أني كتبت هذه الفـكرة ونشرتها في (مجلة الازهر) وهى من أشهر المجلات العربية الاسلامية : قبل أن يظهر للناس أن باحثا سبقنى الى نحوها ، وقبل أن تتحدث الصحائف اليومية عن معجم الاستاذ « فيشر » المستشرق الالمانى والعضو فى المجمع اللغوى الملكى الذي قدمه للمجمع ليتولى طبعه ، وقد قيل ان هذا الاستاذ سلك فى معجمه مسلك الاستقراء لأطوار الألفاظ العربية . فان صح هذا فالحمد لله الذى هدانا للتفكير مستقلين الى ماهدى اليه باحثا منذ عشرات السنين

ثم قفيت على هذا ببسط القول فى كلمة « أدب » وأطوارها فى العصر الجاهلى وعصر صدر الاسلام ، وبيان مااستعملت فيه من معان ، مدللا على ذلك بشواهد من كلام العرب الأقحاح ، عارضا أراء الباحثين من المعاصرين ، ومؤرخى أدب اللغة ، حتى استقام لنا الظن القوى بأن هذه الكلمة عرفها العرب قبل الاسلام مستعملة فى عدة معان من بينهما المعنى « الفنى » فى الحدود التى عرفها له علماء الأدب فى أواخر العصر الأموى . وأوائل العصر العباسى . وقد استغرق هذا البحث نحوا من ثلاث مقالات فى المجلة

وقد بدالى إمعانا فى البحث واقامة له على المحجة البيضاء أن أتعرف الطبيعة العربيه تاريخيا ، لأتبين استعدادها الفكرى من جهة صلاحيته لانتاج أدب قويم يصحح عزو هـذا الأدب المأثور الذى قال عنه الرواة وعلماء اللغة إنه أدب العرب فى عصرهم الجاهلى . لأن مجرد الظن بأن كلمة « أدب » تماورتها لغة العرب ، ودارت بها بين أشداقهم ألسنتهم فى شتي معانيها لايكفى للايمان بأن هذا التراث العظيم من الأدب الخالد صحيح العزو الى العرب قبل الاسلام وأنه صدر عنهم فى كثرته ، على أقل تقدير ، إلا إذا تأيد هذا الظن بدليل تاريخى على أن أمة العرب العظيمة مرت فى حياتها الطويلة بأطوار تاريخية هذبت عاطفتها ، وشذبت أفكارها ، ورقت خيالها ، ولا يكون ذلك إلا فى مرحلة حضارة فائقة يتوارث أثرها الفكرى والعاطفي الخلف عن السلف . وإن ندت عنهم مظاهرها الاجتماعية لأسباب طبيعية .

بيد أني وجدت غموضا كثيفا فى التاريخ . ووجدت أكثر مؤرخى العرب

يتحدثون عنهم كأمة بدوية متوغلة فى الجهالة والوحشية . يئدون البنات ، وينتهكون الحرمات ويقتتلون ويتناهبون منذ أقدم عصورهم ، حتى إن شيخ المؤرخين العلامة ابن خلدون يسجل هذا فى مقدمة تاريخه مكررا ، فهو يقول (العرب لا يتغلبون إلا على البسائط . وذلك أنهم للتوحش الذى فيهم أهل انتهاب وعبث ينتهون ماقدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منتجعهم بالقفر) ويقول : (العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب . والسبب فى ذلك أنهم أمةوحشيةباستحكام التوحش وأسبابه فيهم) الى غير ذلك كثير

ولقدحسبت بادىءذى بدءأن أستاذ التاريخ وفيلسوف الاجتماع ابن خلدون يتحدث بهذاونحوهعن العرب على عهد البعثة المحمدية وهم مبذعرون فى أودية الصحراء ونجادها ، ولم يدر بخلدى أنه حديث عن العرب كأمة قديمة العهد بالوجود ، عاصرت أقدم الأمم ، وناغت التاريخ فى مهده ، ولكنه جبه التاريخ بعبارة يعسر على الباحث أن يجادل عنه ويبرأه من مسؤلية التعميم فيها كقوله : (العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ، والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم ، وأبعد مجالا في القفر ، وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش ، فاستغنوا عن غيرهم فصعب قيادهم بعض لبعض لا يلافهم ذلك وللتوحش) وقوله في موضع آخر : (وانظر الى ماملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه ، وبدلت فيه الأرض غير الأرض ، فاليمن قرارهم قدخرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع والشام لهذا العهد كذلك)

وليت شعرى كيف يكون هذا دليلا على استحكام التوحش وأسبابه فى العرب وهو قانون الوجود وناموس الحياة ، وليس فى الكون التاريخى أمة من الأمم التى عاصرت العرب قديما لم يتقوض عمرانها ولم تتبدل فى موطنها الأرض غير الأرض ؟!!

عندئذ وقفت مشدوها حائرا أمام أقاويل المؤرخين التى تسجل على العرب التوغل فى الجهالة والبلادة الذهنية ، ووحشية البداوة وهمجية الأمية ، وأمام هذه الثروة الأدبية ، العظيمة التى تنادى برقي العرب الفكرى والتياسر العاطفي مما لا يتم إلا فى ظل حضارة سابقة أثرت تأثيرا قويا على الافكار والعواطف والاخيلة حتي لم تقو الفوضى الاجتماعية التي انحدروا إليها بعد أحداث الجزيرة الجسام على محو ذلك الأثر ، بل ظل ماثلا يمد الأمة بفيض من البلاغة الأدبية انقطعت دون التعلق بغبارها أعناق الفحول ، وبهذا التأثير فهمت الأمة العربية بلاغة القرآن المعجزة فعنت لعظمته جباه غطارفتها ، وتطامنت لجلاله عنجهية سادتها ، وبهذا التأثير تقدمت الى الاسلام بعد جولات مقدرة جلاله حاملة لواءه حتى فتح الله به على يديها خزائن الأرض ، وهدى به الانسانية الى شرعة الحياة الفاضلة التي لم تعرفها من قبل ، وبهذا التأثير غذت الامة العربية الاسلام بخطبائه المصاقع من أضراب الصديق ، والفاروق ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن معاذ ، وسواهم ممن دخلوا فى الاسلام ، وهم رجال قد اكتملت فيهم أداة التفكير ، ونضجت قواهم البلاغية قبل أن يتشرفوا بالدعوة المحمدية . نعم إن بلاغتهم في الجاهلية كانت تنسج مطارفها من مظاهر البداوة والحياة الاجتماعية التي كانت سائدة هناك ،

فجاء الاسلام فصهر تلك القوي وهذبها بتعاليمه ، وقومها بدستوره ، ولطف من حدتها بآدابه ، حتى ورثنا عنها تلك الآيات البينات فى أسلوب رائع بديع .

سيقول أناس إن هؤلاء الصيد الصناديد لم يؤثر لهم التار يخ خطبا فى الجاهلية ، لا ، ولكن أفيستطيع أحد مهما تظاهر بالعصبية للاسلام أن يقول إنهم جاءوا — وهم جم غفير — الى الاسلام بكما خرسا فانطقهم بهذه البلاغة الساحرة ، والبراعة الفائقة ؟ فكيف إذن كان أولئك البهاليل مفطورين على هذه القوة الفكرية والبلاغة الادبية لولم يكونوا من أمة لها تفكيرها الأدبي ورقيها البلاغى ؟ ! !

***

أجل : كان ذلك كله حافزا لى على البحث رغم مايعترضه من عقبات ، فرجعت أول مارجعت الى القرآن الحكيم — وهو أصدق نبأ — استخبره عن هؤلاء الذين تحداهم أن يباروه فى سمو أسلوبه ، وجليل تشريعه ، وباهر آدابه ، وأن يأتوا بسورة من مثله ، ماشأنهم فى قوة تفكيرهم واستعدادهم الأدبى لفهم أسرار هذا الكتاب العربى المبين حتى تلتئم له وجاهة التحدى ؟ فأسعف بأسراره من ثنايا إشاراته وقصصه ، وشاد بفصاحة العرب وقوة البلاغة لديهم ، وبراعة البيان فيهم ، وكشف اللثام عن حياة أمة مجيدة من أقدم أمم الأرض ، ليست كما يتحدث عنها سطحيو المؤرخين ، والمنحرفون من الكاتبين ، بل حدثنا عن أمة كانت لها حياة حضرية قارة ، ونظام اجتماعى ، ودول منظمة ، وملك راسخ القواعد ، ظهر في دول عاد وثمود ، وسبأ ، وتبع ، وغيرهم من إخوانهم ، غير أن القرآن الكريم وهو دستور دينى قبل كل شيء لايصور هذه الحياة تصويرا تفصيليا كما تتحدث كتب التاريخ عن تاريخ أمة من الأمم ، وإنما

هى إشارات للعبرة بهؤلاء الذين كانوا أكثر أموالا ونعما وأشد قوة ممن خاطبهم القرآن ، وتحت تلك الاشارات فيض من المعاني والصور الحية سيكشف عنها التاريخ على ضوء الأبحاث الحديثة .

فكان لابد من استنطاق التاريخ الصادق ، وإذا بشيخ التاريخ نفسه العلامة ابن خلدون يقرر في وضوح لاغموض فيه ماكان للعرب الأقدمين من الملك والحضارة البالغة حدا لم تصله أمة معاصرة للعرب منذ أقدم عصورهم .

ونظرة أخرى الى هذه اللغة الشريفة العظيمة وفنونها وعلومها ، وسعتها وقيامها بأعباء أعظم دولة عرفتها الدنيا فى ذلك الحين ، ووفائها بحاجات الملك الاسلامى الزاخر ، وتأتيها لأداء الاعجاز لنفسها بنفسها فى كتاب الله ، ومافيها من وفرة الحيوية القوية التي أمدتها بينبوع الحياة الخصبة فبقيت فى سموها لم تخلق لها جدة ولم تبل لها ديباجة على حين فنيت اخواتها وبقين أثرا بعد عين .

كيف كان لها كل ذلك لولم تكن نبتت فى أمة تدرجت في مراحل الحياة ، وتقلبت فى أدوارها بين الحضارة والبداوة ؟ إن اتساع اللغة ونموها ، ورقى أساليبها وليد الحاجة الملحة ، وماعلمنا أن الحاجة تتسع إلى مثل تلك الدرجة التى توافرت فى اللغة العربية فى أمة تظل طول حياتها منغمسة في الأمية والجهالة والوحشية ، وماأظن أن أحدا يستطيع أن يذكر لنا شاهدا واحدا من التاريخ على مثله .

تساءلت إذن هل كانت الأمة العربية قبل الاسلام بأزمان تعرف شيئا من

العلوم والمعارف بمعناها «الفنى» وخاصة مايتصل بلغتها القاهرة الباهرة ؟ فكان على أن أذهب مع العلماء وأئمة اللغة والأدب في مضائق بحثهم لأعرف هل فكروا فى هذا النحو من البحث ؟ وهل وصلوا الى شىء من الضوء يرسل بأشعته إلى تاريخ العرب فيذهب ببعض غموضه ؟ وإذا بامام من أكابر أئمة اللغة فى القرن الرابع الهجرى هو أبو الحسين أحمد بن فارس أستاذ الصاحب بن عباد يقرر فى كتابه «فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها» الموسوم بالصاحبي : أن العرب فى الزمن الأول كانت على علم بكثير من الفنون الأدبية ، مدللا على ذلك بأدلة قوية ، وأن هـذه الفنون درست ، وبقى منها قليل فى أيدى الناس على عهد الاسلام ، فتولاها العلماء بالتـدوين والبيان حتي استقامت على ماشهدها الناس .

ثم وجدت العلماء يذكرون في سبب وضع علم النحو عبارة فنية دقيقة يروونها عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه ، والعهد إذ ذاك غض ، والزمان شباب ، ولم تـكن العلوم قد وضعت ـ على رأى من يجرد العرب عن المعارف ـ فهل كانت تلك العبارة محض ابتكار من سيدنا على ؟ قد يكون ذلك ، وأنا لا أستحيله ، ولـكنى أرجح أنها أقرب إلى أن تـكون مما بقى فى أيدى الناس من آثار علوم العرب ومعارفهم ، وحسب على رضى الله عنه أن يكون أول علماء الاسلام حفظا لتراث العرب وآدابهم .

ولنسق هنا نص العبارة حتي يشترك معنا المنصفون من القراء فى صحة حكمنا واستئناسنا بها : روى ابن الانباري فى (طبقات الادباء) : «أن سبب وضع على

عليه السلام لهذا العلم ماروى أبو الأسود قال : دخلت على أمير المؤمنين على ابن أبي طالب عليه السلام فوجدت فى يده رقعة فقلت : ماهذه يا أمير المؤمنين؟ فقال : إنى تأملت كلام العرب فوجدته قد فسد بمخالطة هذه الحمراء يعنى الأعاجم ، فأردت أن أضع شيئا يرجعون اليه ، ويعتمدون عليه ، ثم ألقى إلى الرقعة وفيها مكتوب «الكلام كله اسم وفعل وحرف ـ تأمل ـ فالاسم ما أنبأ عن المسمى ـ تأمل ـ والفعل ما أنبىء به ، والحرف ما أفاد معنى » وقال لى : انح هذا النحو ، وأضف إليه ماوقع اليك ـ تأمل ـ « واعلم ياأبا الأسود أن الأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر ، واسم لاظاهر ولامضمر ، وإنما يتفاضل الناس ياأبا الأسود فيما ليس بظاهر ولامضمر » تأمل أيها المنصف ـ وأراد بذلك الاسم المبهم ، قال أبو الأسود : ثم إنى وضعت بابى العطف والنعت ، ثم بابى التعجب والاستفهام إلى أن وصلت إلى باب إن وأخواتها ماخلا لكن فلما عرضتها على على عليه السلام امرنى بضم لكن اليها ، وكنت كلما وضعت بابا من أبواب النحو عرضته عليه رضى الله تعالى عنه الى أن حصلت مافيه الكفاية قال : ما أحسن هذا النحو الذى قد نحوت »

سيقول المخلفون من المنحرفين عن الموالاة للعرب ، ليس هذا من ابتكار على رضي الله عنه ، ولا مما كانت تعرفه العرب من قبل ، بل هو نحو سريانى أخذه أبو الأسود ونسبه الى سيدنا على ، دعوي ثكلت دليلها ، فهى كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار

تجمعت لدي هذه المعلومات وغيرها فحدثت القلم باذاعتها في أجواء الثقافة

والبحث ، وأنا على ثقة أن كثيرا ممن يتعصبون على العرب ، أو يقفون فى سفح التفكير سينغضون رءوسهم ، وينكرون على بحثى إنكارا عنيفا ، لأنه قد يتراءى لهم جديدا مخالفا لما علموه ، ولكن ما قيمة الانكار أمام الحقائق المجلوة بالحجة الناصعة ؟

تقدمت غير متوجس ، بل كنت مطمئنا أتم الاطمئنان ، راضيا أكمل الرضا لأنى فكرت ، ثم اعتقدت ، فكتبت مقالى (الحياة الأدبية عند العرب) ولم أكن قد أكملت البحث ، ونبهت على ذلك فى ذيل المقال قائلا (للبحث بقية) ونشر المقال بتذييله فى العدد العاشر من المجلد السادس لمجلة الأزهر ، وإذا بتعليق ضافى الذيول وسيع الحواشي يعلق به الاستاذ الفاضل (محمد فريد وجدى) مدير المجلة على مقالى ، وينشر في نفس العدد عاقبا للمقال ، وقد ذهب فيه الاستاذ الفاضل مذاهب غريبة ، فرجعت الى مقالى اقرؤه مرة ومرة ، ثم قرأت التعليق مرات ، فألفيت الاستاذ قد ندعنه الرأي ، وغرب فى تعليقه بينما مقالى قد شرق ، وقد خيل لى أن فى نفس الاستاذ فكرة خاصة بتاريخ العرب كان يريد أن يقولها عند سنوح الفرصة ، وكأنه رأى أنها واتته فليبادرها حتى أنه لم ينتظر الى أن يكمل البحث في المقال الثانى : وإنه ليؤسفنى أن أقول إنها فرصة عاثرة لم تستقم وسائلها ، ومهما يكن من شىء فقد تطلب التعليق منى ردا ، فابتدرت القلم مستنهضا له ليدفع عن الحق شبهة الباطل متوجها وجهتى العلمية مضيفا الى ماسبق ذكره حجة العلم الحديث على ضوء التنقيب عن الآثار فى مهد الحضارة العربية ، والاستاذ الفاضل أشد الناس إيمانا بهذا العلم ، غير معرج على ما فى التعليق

من غمزات ليس شيء منها بضائرى ، وإن كنت أحب لمقام الاستاذ الفاضل أن يتجافى عن مثلها لأن غير أهل العلم أقدر عليها .

كتبت ردى على التعليق وأرسلته الى المجلة لتنشره في العدد التالى . ولكنها شاءت أن تضيق عليه ، وأن تعتذر فى هذا العدد بأنها رأت « أن تغفل نشره ، لأن الموضوع قد وفى حقه على كلا المذهبين » . أما التعبير بلفظ « رأينا أن نغفل نشره » فهذا اليها على مافيه مما لا يرضاه قراؤها الأحرار أن يكون مذهبا لمجلة الدين والخلق الكريم . وأما أن الموضوع قد وفى حقه على كلا المذهبين فلعل هذا يستقيم فى مذهب الأستاذ الفاضل مدير المجلة . أما فى مذهبنا — ونحن طرف فى الدعوى — فلا نرى أن الموضوع قد وفى حقه إلا إذا اطلع القراء على ردنا الحاسم لهذا التعليق ومافيه من شبه . عندئذ يصح أن يكون الموضوع قد وفى حقه فى أساس الفكرة وجوهرها . فاذا ولدت على هوامشه بعض الحواشى . فنحن بتوفيق الله تعالى على استعداد للذهاب الي أبعد حدود الجدل العلمى فى دائرة أدب الخطاب حتى يقضي الله بيننا وهو خير الحاكمين .

لم أشأ أن أتشبث بحق فى ضرورة نشر ردى فى نفس المجلة رغبة فى أن تسير فى وجهتها السامية من الدعاية الى الله ، والارشاد الى الحق والخير . والكشف عن أسرار الاسلام ونشر تعاليمه . وحتي لا تنصرف الى الجدل العلمى الذى قد يطول على قرائها . وهو وإن يكن جم الفائدة لكن فائدة البحوث المستقلة المنوعة قد تكون أكثر للأذهان التى تتناولها بالنظر

استجبت الى هذه الرغبة ، وحاولت جهدى أن أنشر ردي في مجلة أخرى من المجلات العلمية المحترمة ، أو في صحيفة يومية من الصحائف الفاضلة ، فلم أوفق ، واختلفت على الأعذار من ذويها والقائمين بشأنها ، فعمدت إلي أن أتصل بالقراء اتصالا مباشرا ، وأن أجمع مقالى الاول ، ومقالى الثاني المتمم للبحث ، والتعليق على المقال الأول والرد على هذا التعليق فى رسالة أطبعها على نفقتى على مافى ذلك من مشقة أحتملها راضيا في سبيل الدفاع عن عقيدتي الفكرية ، وتأييدا للحق فى وجهة نظرى ، والعقيدة الفكرية هى رأس مال العالم ، يجب عليه متي استقام له دليلها أن يدفع عنها مايحوم حولها من شبه ، وفى ذلك أكبر جزاء للمخلصين . سئل بعض الحكماء فيم لذتك ؟ فقال : فى حجة تتبختر اتضاحا وشبهة تتضاءل افتضاحا . أما أنا فأقول ماحكي الله تعالى عن خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام تأسيا به فى محاجته للحق : (قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح مااستطعت وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

المقال الاول

الحياة الأدبية عند العرب

« وعدنا في المقال الثاني من مقالات « تأريخ الألفاظ » بالتحدث عن الحياة الأدبية عند العرب ، واختلاف لغاتهم ، وقيمة النصوص الأدبية المعزوة إلى العصر الجاهلي ، ووفاء بذلك الوعد نبدأ هذا البحث بهذا المقال :

القرآن الكريم أصدق المصادر في الانباء عن حياة العرب باتفاق الموافقين والمخالفين ، فاذا حدثنا القرآن بشيء عن العرب أخذناه أخذ الواثق بصحته المطمئن إلى صدقه ، ثم نتتبع مقالات التاريخ والأدب ونمحص منها مايغلب على الظن صدقه حتي نصل الى نتيجة علمية واضحة .

وصف القرآن الحكيم العرب بالفصاحة ، وذرابة اللسان ، فقال في قوم أظهروا الايمان والودادة ، وأضمروا الكفر والعداوة : « أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد » ونعتهم بالطول في البلاغة فقال : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة ويشهد الله على مافي قلبه وهو ألد الخصام » وخصهم بالفوق في البيان فقال : « وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم » قال الزمخشري : « وكانوا يحضرون مجلس رسول الله ﷺ فيستندون فيه ، ولهم جهارة المناظرة وفصاحة الألسن » ووسمهم بقوة العارضة

والدهاء إذ قال : « وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال » وسجل عليهم اللدد في الخصومة والجدل فى المحاورة بقوله : « وقالوا أآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » وبقوله : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا » وذكر عنهم أنهم أولو أحلام ونهى فقال : « أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون » قال في الكشاف : وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى .

والقرآن أيضا تحدى العرب أن يأتوا بحديث مثله لما بهتوا رسول الله ﷺ بتقول القرآن من عند نفسه ، فهل كانت تلك الأوصاف كلها وهذا التحدى للعرب وهم فارغون من أدب حى يغذى عقولهم ، ويربى نفوسهم تربية أدبية تقوم على التفاصح بما يخلب الألباب ويستميل الأسماع ، من منطق حسن وكلام بليغ ، وبيان بديع فى فنون من المعارف الانسانية الأدبية يستحقون بها تلك الأوصاف ، ويصح أن يتوجه إليهم هذا التحدى ، وكيف يقع التحدى الصارم لقوم ذوى عى وحصر ، وضعف فى المنة العقلية يعيشون عيشة أولية فى حياة جاهلة بليدة ؟

ليس القرآن الحكيم كتاب خطابة يلقى بالقول على عواهنه ، وإنما هو كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ولكن بعض الباحثين يحلو لهم أن يعبثوا حول أدب العرب وتاريخ العرب ، وأن يصوروهم أمة لا تشعر بالحياة إطلاقا ، بله حياة الأدب التى تليق بهم كأمة لها تاريخ مجيد ، وحضارة زاهية يقول عنها ابن خلدون : « وما كان لأحد من

الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ، ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك » وقال فى موضع آخر : « وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين في أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم ، والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلى الدولة » (تأمل جيدا)

فاذا قال العرب : تلك آثارنا تدل علينا ، وهذا أدبنا بين أيديكم فاقرءوه ثم احكموا ، ازور هؤلاء الباحثون ، وأنغضوا رءوسهم قائلين : هذا شعر مصنوع منحول ، وذلك النثر باطل الأباطيل ، وتلك الشخصيات أبطال روائية انتزعها الخيال انتزاعا ، ولا وجود لها فى التاريخ ، وهذه مغامرة فى البحث لا يسوغها النقد الدقيق للتاريخ إلا لمن يأخذون تاريخ العرب بعيدا عن منابعه ويتلقفونه من غير مصادره .

فالعرب قبل الاسلام لم يكونوا فى حياة أولية ساذجة ، لا أثر للتفكير فيها ، نعم ، وإنما كان فريق منهم فى طور بداوة طارئ عليهم غير متأصل فيهم ، ولو تتبع الباحث أطوار الحياة الاجتماعية عند العرب لوجدها حلقات متسلسلة آخذا بعضها بأطراف بعض ، ولوجد فيها ملكا وحضارة ظلت آثارها قوية قائمة فى اليمن والشام والعراق حتى جاء الاسلام ، وأولئك الذين لحقهم الاسلام فى طور البداوة لم يكونوا إلا سلالة هؤلاء الصيد الأماجد ، فهم إما عدنانيون

انشقت عنهم نبعة جرهم اليمنية بتلقيح أزكى دم من أشرف بيت وأكرم أرومة في الأرض ، أرومة اسماعيل بن ابرهيم عليهما السلام ، وإما قحطانيون جاءوا إلى الحجاز إثر حادث سد مأرب بعد أن رتعوا فى بحبوحة الحضارة أزمانا طويلة هذبت عقولهم ، وصفت نفوسهم ، وصقلت ألسنتهم ، فكانت لهم معارف تليق بملكهم ، وكان لهم أدب يناسب حضارتهم ورثوه أبناءهم من بعدهم .

وهل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم مابلغه العرب من عظمة الملك فى قديمهم كما قال ابن خلدون — ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شيء ، وتبقى حيث وصفها بعض الباحثين أمية جاهلة ؟ هذا بعيد لا يقره التاريخ ، ولا ترضي به أصول علم الاجتماع .

قال أحمد بن فارس فى كتابه الموسوم (بالصاحبي) : « وزعم قوم أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وأنهم لم يعرفوا نحوا ولا إعرابا ، ولا رفعا ولا نصبا ولا همزا ، قالوا : والدليل على ذلك ماحكاه بعضهم عن بعض الأعراب أنه قيل له أتهمز إسرائيل ؟ فقال : إني إذا لرجل سوء . قالوا : وإنما قال ذلك لأنه لم يعرف من الهمز إلا الضغط والعصر ، وقيل لآخر : أتجر فلسطين ؟ فقال : إنى اذا لقوى ، قالوا : وسمع بعض فصحاء العرب ينشد :

نحن بنى علقمة الأخيارا

فقيل له : لم نصبت « بنى » ؟ فقال : مانصبته ، وذلك أنه لم يعرف من النصب الا إسناد الشيء ، قالوا : وحكي الأخفش عن أعرابي فصيح أنه سئل أن ينشد

قصيدة على الدال ، فقال: وماالدال ؟ ، وحكي أن أباحية النميرى سئل أن ينشد قصيدة على الكاف ، فقال :

كفي بالنأى من أسماء كاف   وليس لسقمها إذ طال شاف

قلنا : والأمر فى هذا بخلاف ماذهب اليه هؤلاء ، فأما من حكي عنه من الأعراب الذين لم يعرفوا الهمز والجر والكاف والدال ، فانا لم نزعم أن العرب كلها مدرا وبرا قد عرفوا الكتابة كلها ، والحروف بأجمعها ، وماالعرب فى قديم الأزمان الا كنحن اليوم ، فما كل يعرف الكتابة والخط والقراءة . وأبو حية كان أمس ، وقد كان قبله بالزمن الأطول من يعرف الكتابة ويخط ويقرأ والذي نقوله في الحروف هو قولنا فى الاعراب والعروض ، والدليل على صحة هذا ، وأن القوم تداولوا الاعراب ، أنا نستقرىء قصيدة الحطيئة التى أولها :

شاقتك أظعان لليـ   لى دون ناظرة بواكر

فنجد قوافيها كلها عند الترنم والاعراب تجىء مرفوعة ، ولولا علم الحطيئة بذلك لأشبه أن يختلف إعرابها ، لأن تساويها في حركة واحدة اتفاقا من غير قصد لا يكاد يكون . فان قال قائل : فقد تواترت الروايات أن أبا الأسود أول من وضع العربية ، وأن الخليل أول من تكلم فى العروض ، قيل له : نحن لا ننكر ذلك ، بل نقول إن هذين العلمين قد كانا قديما وأتت عليهما الأيام وقلا فى أيدي الناس ، ثم جددهما هـذان الامامان (١) ، وقد تقدم دليلنا فى معنى الاعراب .

---

(١) هذا يتفق مع ماذهبت اليه فى العبارة المنسوبة الى سيدنا على فى أصل وضع النحو

وأما العروض فمن الدليل على أنه كان متعارفا معلوما اتفاق أهل العلم على أن المشركين لما سمعوا القرآن قالوا أو من قال منهم : إنه شعر ، فقال الوليد ابن المغيرة منكرا عليهم : لقد عرضت ما يقرؤه محمد على أقراء الشعر ، هزجه ورجزه ، وكذا ، وكذا فلم أره يشبه شيئا من ذلك . أفيقول الوليد هذا وهو لا يعرف بحور الشعر ؟ » انتهى كلام ابن فارس .

وإنما سقناه على طوله ليعرف الباحثون المعاصرون أن العلماء الأقدمين عنوا بالبحث فى حياة العرب العلمية ووصلوا حديثهم بقديمهم ، وكان حذاقهم مؤمنين بأن العرب كانوا على جانب من المعارف الفكرية والعلوم الأدبية ، وإذا كان هذا الذى قاله ابن فارس صحيحا فى حق العرب الأقدمين على ماهو فرض كلامه ، فهل يصح فى الأذهان النيرة أن يكون للأولين من العرب تلك الحياة العلمية ، ثم لا يكون لأبنائهم وأحفادهم ووارثي مجدهم حياة أدبية ؟

وإذا كان قد باد من العرب أجيال فقد عاصرتهم أجيال لم يأت عليها الفناء جملة أخذت عنهم معارفهم ونقلتها إلى من بعدهم على ماهو الشأن فى كل أمة تتفرع من دوحة واحدة ، وتعيش فى وطن واحد ، ظل بهم ذلك الوطن عامرا طوال أحقاب التاريخ ، ولم يزعم أحد من المؤرخين أن جزيرة العرب أتى عليها حين من الدهر خلت فيه من ساكنيها ، ولا أن العرب انقرضوا قضهم بقضيضهم .

غير أن الحجازيين من العرب سكان الشمال بالجزيرة كان لهم من طبيعة وطنهم ماصبغ حياتهم الاجتماعية بصبغة تخالف صبغة إخوانهم فى اليمن والحيرة والشام

لأن الحجاز اقليم تخالف طبيعته طبيعة تلك البلاد ، فلم نقم فيه حياة اجتماعية متحضرة كالتى قامت في اليمن والعراق ، بل غلبت على أهله البداوة ، ومايتصل بها من أخلاق وعادات »

صادق ابرهيم عرجون

« طبق الأصل »

« للبحث بقية »

المقال الثانى

الحياة الأدبية عند العرب (١)

تختلف الحياة الأدبية عن الحياة الاجتماعية اختلافا كبيرا ، لأن الحياة الاجتماعية وليدة البيئة الحاضرة ، أوهى صورة البيئة التي تحيا فيها الأمة وتعيش بأسبابها ، والنظم التى تسيرفى حاضرها على مقتضاها ، وليس لماضى الامة أثر كبير فى حياتها الاجتماعية ، ولاسيما إذا تنقلت فى مراحل تاريخية بعيدة الشبه ببعضها كالذي عليه الحجازيون من العرب ، فان قرب الشبه بين الحياتين ، واتصلت أسباب الحاضر بالماضى ، كان هذا الماضى منبعا يمد الحاضر مع مايتجدد له من وسائل حيوية كما حصل للمناذرة والغساسنة ، فان اتصالهما بالفرس والرومان ، وأخذهما بأسباب الحضارة مكناهما من الاحتفاظ بتراث

(١) بقية البحث المنشور فى العدد العاشر من المجلد السادس (نشر هذا المقال فى العدد الثاني من المجلد السابع للمجلة)

آبائهم الأولين من سمات الملك والحضارة ، وقعدت طبيعة الحجاز بأهله عن مجاراة إخوانهم فى الحياة الاجتماعية ، وصرفتهم إلى مقتضيات حياتهم الجديدة ،فكانوا بدوا معاندين أميين،ألفوا الظعن والارتحال جفاة ،لاينقادون إلى الحق من قريب ، وهذه الفوضى الاجتماعية هى التى نعاها عليهم القرآن الكريم ، وعابهم بها فى بعض آياته .

أما الحياة الأدبية فهى صورة الماضى الذى مرت به الأمة فى جميع مراحلها التاريخية ، وإن كانت هذه الصورة تتجلى فى مرآة الحاضر ، فان الأدب أثر العاطفة الكاملة ، وثمرة العقل الناضج ، واكتمال العاطفة ونضج العقل يحتاجان إلى زمن طويل ، ومؤثرات متكررة ، وتلك المؤثرات قد تكون مستمدة من الحياة الاجتماعية والعقلية في صورها الكاملة ،وفى هذا ما يشرح وجود حياة أدبية زاخرة فياضة إلي جانب الفوضي الاجتماعية ، وحياة البداوة عند العرب قبيل مجيء الاسلام ، وإلا فكيف نفهم صدور هذا الأدب عن العرب لولم نربط حاضرهم بماضيهم ، ونعلم أن العقل العربى ، والعاطفة العربية قد استوفيا حضانتهما وبلغا رشدهما فى ذلك الماضي البعيد ، ذلك الأدب من الشعر والنثر الذى قامت عليه الثقافة الاسلامية والنهضة الفكرية فى القرن الأول الى جانب القرآن الحكيم ، والذى صاحب العلوم الحكمية والمعارف الأجنبية وتبوأ بينها مكانا عليا ، والذى لا يزال على كثرة البحث والنقد والتحليل دعامة من أقوى دعائم المعارف الاسلامية ، صامدا أمام الأعاصير العاصفة . والذى خلد لغة العرب ومجدهم ، والذى لا يزال فى أسلوبه ومتانة عباراته ونصاعة ديباجته مثلا أعلى للبلاغة البشرية ؟

فى نواحى الأرض أمم كثيرة هي أربى عددا من العرب، وأطول بقاء منهم، عمروا أحقابا وعاشوا دهرا دهيرا . ولم ينقل عنهم حرف واحد يدخل في ساحة الأدب الرفيع، وهم لا يزالون على حالهم تلك من الجهالة والبلادة الفكرية والوحشية الاجتماعية . فكيف يمكن فهم هذا الوضع فهما علميا ؟ ألأنهم ليسوا أناسي مثل العرب وغيرهم من الامم التي تركت في سفر التاريخ آثارا أدبية خالدة ؟ كلا . إنما كان ذلك كذلك لأن أولئك الناس أشبه حاضرهم ماضيهم فى حياة جاهلة جرت على وتيرة واحدة من البعد حتى عن أوليات المعارف الفكرية منذ خلقهم الله، فهم لم يكن لديهم أثارة من علم تجلو عقولهم . وتصقل عواطفهم، وتعدهم لانتاج أدبى، وحياة راقية . فاذا وجدنا لأمة من الأمم تراثا من الأدب الحى الذى يستطيع أن يغذى الفكر البشرى فى طور ارتقائه كان باطلا من الرأى ولغوا من القول أن يقال عن تلك الأمة إنها عاشت مدى تاريخها كله عيشة أولية جاهلة لا تهيئها لحياة أدبية ونهضة فكرية .

بين أيدينا ثروة عظيمة من الأدب يعزوها ثقات الرواة الى العرب قبل الاسلام، والذى ذهب عنا ولم يصل الى أيدينا، وعبثت به تيارات الحياة أضعاف ماوصلنا .

قال الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : « وإن شيئا الذي فى أيدينا جزء منه للمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب ، وهو الله الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون » . وروى محمد بن سلام في طبقات

الشعراء «قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه . فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الاسلام وجاءت الفتوح ، واطمأن العرب بالامصار ، راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا الي ديوان مدون ، ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم أكثره » . وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : «ماانتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولوجاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » .

ويحدثنا ابن قتيبة عن الاصمعى قال : جاء فتيان إلى أبي ضمضم بعد العشاء . فقال : ماجاء بكم ياخبثاء ؟ ! قالوا جئناك نتحدث . قال : كذبتم ، بل قلتم كبر الشيخ وتبلغته السن عسى أن نأخذ عليه سقطة ، فأنشدهم لمائة شاعر كلهم اسمهم عمرو . فقال الأصمعى : فعددت أنا وخلف الأحمر فلم نقدر على أكثر من ثلاثين : قال ابن قتيبة : هذا ماحفظه أبو ضمضم : ولم يكن بأروى الناس .

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشى : ماتكلمت به العرب، من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره . ويروى لنا الامام عبد القاهر الجرجانى عن الجاحظ : أن قيس بن خارجة أتاه الحاملان فى شأن حمالة داحس والغبراء فضرب بصفيحة سيفه مؤخرة راحلتيهما وقال : مالى فيها أيها العشمتان ؟ قالا : بل ماعندك ، قال عند قرى كل نازل ، ورضا كل ساخط ، وخطبة من لدن تطلع الشمس الى أن تغرب ، آمر فيها بالتواصل ، وأنهى عن التقاطع . قالوا فخطب يوما

الى الليل ، فما أعاد كلمة ولا معنى . وهذه الخطبة ونحوها من كلام مصاقع خطباء العرب ضاعت فيما ضاع من أدبهم .

يحدثنا ابن قتيبة فى « كتاب الشعر والشعراء » : كان ثلاثة إخوة من بنى سعد لم يأتوا الامصار ذهب رجزهم ، يقال لهم نذير ، ومنذر ، ومنذر ، ويقال إن قصيدة رؤبة التى أولها : وقاتم الأعماق ، لنذير ، ويقول ابن سلام : ومما يدل على ذهاب العلم وسقوطه قلة ما بقى بأيدى الرواة المصححين لطرفة وعبيد ، والذى صح لهما قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وضعا من الشهرة والتقدمة .

هذه حقائق وأسانيد تبعث فى نفس الباحث المنصف الطمأنينة الى الايمان بأنه كان للعرب قبل الاسلام حياة أدبيـة تعتمد فى منزعها على العقل والعاطفة جميعا ، وتبدو في مظهر عليه سيماء الطبيعة التى تكنف ذلك العقل وتلك العاطفة فى حاضرها . أما هذا الغموض الذى يسود تفاصيل تلك الحياة الأدبية فما هو إلا أثر من آثار الغموض الشامل للتاريخ القديم كله عند جميع الأمم التى عاصرت العرب فى عصورها الجاهلية .

واذا حاول الباحث أن يتعرف هذه الطبيعة التى جلت الحياة الادبية فى مرآتها عن طريق ما بين أيدينا من نصوص أديـة ، رأي مظاهر البداوة بأخيلتها وآثارها ومعانيها وأغراضها ماثلة فى صفحة ذلك الأدب . فهو أدب بدوى فى ديباجته ومعانيه وروحه ، لا يمثل الحياة العربية كاملة ، حضارتها وبداوتها كما حدثنا عنها التاريخ .

ومن حق البحث أن نتساءل عن شأن الحضارة العربية التي حدثنا عنها ابن خلدون، وكشف عن وجهها النقاب البحث الأثرى الحديث، تلك الحضارة هل كان لها أدب يمثلها؟ واذا كان فأين هو ذلك الأدب؟ والتاريخ لا يتظنن فى أن آثارا من بقايا تلك الحضارة ظلت قائمة فى مواطنها من العراق والشام واليمن. حتى جاء الاسلام.

أما أنه كان للحضارة العربية أدب يصورها فهذا ما نرجحه ترجيحا قويا: لأن الأدب صورة الحياة ومرآتها. وقد كانت الحياة هناك زاخرة فياضة. وبعيد عن طبيعة الوجود أن تذهب تلك الحياة دون تصوير فى قالب أدبي من الشعر أو النثر تجيش به النفوس الحساسة إجابة لداعى الطبيعة نفسها، وهى أنطق ما تكون في هذا الجانب المتحرك الحساس من الحياة، وهى أحرى أن يكون لها أدب أروع وأخصب وأمتع من حياة البداوة التي يعتزى اليها الأدب الجاهلى المعروف.

وأما أين هو ذلك الأدب؟ فهذا ما اختلفت فيه أنظار الباحثين، فقد عرض بعض المعاصرين لهذا النحو من البحث ورأى أن الذى أضاع تلك الآداب وذهب بها إنما هو اختلاف لغات العرب في الشمال والجنوب والشرق والغرب اختلافا جوهريا جعل الصلة بينها كالصلة بين اللغة العربية المبينة التي نزل بها القرآن الكريم وبين أية لغة أخرى من اللغات السامية، وقد كان لأهل الحضارة من العرب فى اليمن، والحيرة وغسان أدب بلغة خاصة بهم تخالف لغة هذا الأدب المروى المحفوظ في أساس وضعها وفي نحوها، وتصريفها وحركات إعرابها، ومن ثمة عرض الشك في صحة هذا الأدب المأثور معزوا إلى العرب

طرزا جديد يرتكبها بعض الذين يكتبون فى الأدب عليها مظهر الدراسات التحليلية وليست منها فى شيء .

فنحن حيال ما كتبه أولئك المؤرخون عن قبيلة عاد من أن طول الرجل منها كان سبعين ذراعا إلى مائة ذراع . وأن رأس أحدهم كان كالقبة العظيمة وعينه تفرخ فيها السباع ، وأن أول ملوكها وهو عاد قد ملك الفا ومئتى سنة وأنه تزوج بالف امرأة ، وولدله أربعة آلاف ولد ذكر الخ .

نحن حيال هذه المبالغات لا نشعر بأقل حرج ، فان علاجها فيها ككل شيء يصور خارجا عن حدوده الطبيعية ، ولكنا حيال الكتابات التى عليها مظهر الأسلوب العلمى نشعر بكثير من الضيق ، لأنه مظهر خلاب يسلك الى الاذهان الخالية من ملكة النقد ، فيرسخ فيها وينتج نتائج خطيرة على الدين والعلم معا

فأما نتائجها على الدين فالغض من قيمة الرسالة المحمدية ، فاذا كان صحيحا مايقوله ابن خلدون عن العرب القدماء ، وهو « ما كان لأحد من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك » وقوله فى موطن آخر عن العرب الأولين في اليمن والبحرين وعمان والجزيرة إنهم « بلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء ، فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلى الدولة »

وإذا كان صحيحا ماعقب به الاستاذ الشيخ «صادق عرجون» على هذا ، وهو قوله : «فالعرب قبل الاسلام لم يكونوا فى حياة أولية ساذجة لا أثر للتفكير فيها . نعم ، وإنما كان (فريق منهم) في دور بداوة (طارىء عليهم) غير

متأصل فيهم ، ولو تتبع الباحث أطوار الحياة الاجتماعية عند العرب لوجدها حلقات متسلسلة آخذا بعضها بأطراف بعض ، ولوجد فيها ملكا وحضارة ظلت آثارهما قوية قائمة فى اليمن والشام والعراق (حتى جاء الاسلام) وأولئك الذين لحقهم الاسلام فى طور البداوة لم يكونوا إلاسلالة هؤلاء الصيد الأماجد »

قلنا إذا كان هذا كله صحيحا فلا تكون الرسالة المحمدية قد أخرجت العرب من الظلمات الى النور ولا أوجدت فيهم وحدة اجتماعية ما كانوا يعرفونها ولا بثت فيهم من الأخلاق والآداب ما كانوا في أشد الحاجة اليه ، ولا آتتهم دستورا أفضى بهم السير عليه الى تبوؤ خلافة الله فى العالم قرونا كثيرة ،غيروا فيها وجه الأرض ، ونشروا علما وحرية ومدنية قضت على كل ما كان متحجراً غير صالح للحياة في العالم كله . ولكن ماذكره ابن خلدون وغيره وتابعهم فيه الاستاذ عرجون ومن تقدمه من الكاتبين المعاصرين كله غير صحيح والصحيح منه مبالغ فيه مبالغة لاتحتمل النقد والتمحيص .

نحن لا ننكر أنه قامت لبعض قبائل العرب البائدة (دول قبيلية) فاشتهر بنو عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضر موت بتأسيس دول لها ملوك يتوارثون العروش ، ومدنية مناسبة للزمان الذى وجدوا فيه .

وقد سميت هذه الطبقة الأولى من العرب بالبائدة ، لأنها انقرضت منذ زمان بعيد ، وغمض تاريخها الى حد أن العرب أنفسهم لم يعرفوا منه شيئا يذكر

غير مبالغات وخزعبلات تخيلها الخراصون تخيلا على النحو الذى نقلته عنهم فى صدر هذه المقالة . وقد ظل العرب يجهلون أنه قامت فى اليمن في بعض عصورها دولة يقال لها المعينية حتى قام المستعرب « هاليفى » مستهديا بما ورد عنها فى كتاب المؤرخ اليوناني القديم « استرابون » ، فارتاد بلاد الجوف شرق صنعاء ، واكتشف أنقاض معين ، ووجد بها كتابات بالقلم المسند دلته على أسماء ستة وعشرين من ملوكها .

فتاريخ هذه الطبقة البائدة من العرب يجب أن يغفل في بحث حالة العرب قبل الاسلام لغموضه وتغلغله فى القدم ، ولما حدث من الانقلاب الذريع فى كيان الأمة العربية بعده ، حتى سميت تلك الطبقة بالبائدة ، ومن بقى بعد تلك الانقلابات سموا بالعرب المستعربة .

والذى يجب أن يلاحظه القراء أن الحالة القبيلية فى الأمة العربية لازمتها فى كل عهودها حتى جاء الاسلام فوحد بينها وجعل منها أمة « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »

فالذين يذكرون الدول العربية مضطرون أن يسردوا أسماء قبائل ، فيقولون : عاد وثمود وجديس وطسم وأميم وحضرموت الخ . حتي أن اليمن ، وهى البلاد التي كان يصح أن تقوم فيها أمة موحدة ، لم تبلغ الى هذه الدرجة . فقد كانت منذ أقدم أزمانها تقسم الى محافد وكل محفد الى قصور ، والقصر حصن يحيط به سور يقيم فيه أمير مستقل يوضع أمام اسمه لفظ (ذو) وهؤلاء

الأمراء يعرفون بالأذواء . وربما اجتمعت عدة محافد تحت أمير واحد متغلب فيسمى (قيل) وكان الأقيال كثيرا مايتقاتلون ، وكان يتفق أن يكبر شأن قيل فيدخل جميع الأقيال تحت دولته ، ويورث الملك أعقابه ، ولكنها تجىء دولة يغلب على مزاجها البدوية والأمية . فقد دلنا التاريخ على قيام أربع دول فى اليمن ، وهى المعينية ، والسبئية ، والحميرية ، والتبابعة ، ولم تنقرض الأخيرة إلا فى القرن السادس أى قبيل ظهور الاسلام بمدة قليلة ، فلم يصلنا من واحدة منها كتاب مخطوط ، ولا أتانا خبر عن وجود أثارة من علم فيها ، وقد وصلنا عن أمم كثيرة غيرها مؤلفات وضعت قبل ستة آلاف سنة ، وأسماء علماء وفلاسفة وفنانين كانوا عائشين فى تلك العصور البعيدة .

والآن ننظر الى الحالة التى كانت عليها الأمة العربية على عهد البعثة المحمدية :

كان ببلاد العرب فى ذلك العهد ثلاث ممالك : أولاها اليمن ، وثانيتها دولة اللخميين بالعراق ، وثالثتها الغساسنة بمشارف الشام ، ومن بقى فكانوا كلهم على الحالة البدوية .

فأما اليمن فكانت مستعمرة فارسية ، ولها وال اسمه الهرمزان ، وكانت قبل أن يستولى عليها الفرس مملوكة للاحباش .

وأما دولة اللخميين فكانت تابعة للفرس أيضا ، تغلبوا عليها واستمروا متسلطين فيها أجيالا حتى ظهر الاسلام .

وأما الغساسنة فكانوا يحملون نير الرومانيين ليس لهم من أمر أنفسهم شىء .

ولا بد لنا هنا أيضا أن نذكر أن هذه الدول كانت محتفظة بوصفي عهد الجاهلية العربية ، وهما البداوة والأمية . نعم إنه كانت لممالكهم مدن ، ولملوكهم قصور ، ولكن الرعية كان أكثرها على الحالة البدوية . وكان عدد المدن لا يتناسب وسعة الأراضى التى تقوم عليها تلك الممالك . وجزيرة العرب التي تساوى مساحتها ستة أضعاف مساحة فرنسا ليس فيها غير عدد من المدن يعد على الأصابع (راجع الخريطة) .

ومما يجب ملاحظته أن الأمية كانت أثيرة عندهم الى حد أن هذه الدول على مجاورتها للفرس والرومان ووقوعها تحت نيرهم أجيالا ، لم تأخذ أخذهم فى العلوم ، والفنون فلم يشتهر فيها فلكي أو طبيب أو فنان ، ولم يصلنا منها صفحة واحدة باللغة العربية حتى ولا ما يتعلق بالشئون الدينية . قال الله تعالى : « وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير » : « أم لكم كتاب فيه تدرسون » ؟

أما بقية العرب وهم السواد الأعظم في سائر جزيرة العرب ، فكانوا يعيشون على حالة بداوة وأمية بأوسع ما تحتمله هاتان الكلمتان من يوم أن خلقهم الله الى عهد البعثة المحمدية ، ولم يكن من الممكن أن يكونوا على غير هذه الحالة ، لأن قوام المدنية الزراعة والصناعة والتجارة والعلم ، وأين هذه من أكثر العرب فى عهد جاهليتهم ؟

يريد الأستاذ صادق عرجون وهو يعالج الكتابة في الأدب أن يجعل له قدمة عند الأمة العربية فى عهد الجاهلية ، فهو يقول :

«هل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم ما بلغه العرب من عظمة الملك فى قديمهم - كما قال ابن خلدون - ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شيء، وتبقى حيث وصفها بعض الباحثين أمية جاهلة؟

ونحن نقول: إن الذى وصفها بالأمية والجهل هو القرآن نفسه الذى يسلم الاستاذ صادق عرجون بأنه أصدق المصادر فى الانباء عن حياة العرب قبل البعثة المحمدية، قال الله تعالى: «هو الذي بعث فى (الأميين) رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين»

وقال تعالى: «فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن، وقل للذين أوتوا الكتاب (والاميين) أأسلمتم فان أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فانما عليك البلاغ والله بصير بالعباد»

فالأمية كانت الوصف المميز للامة العربية من أقدم أيامها إلى أن أرسل اليها والى العالم كافة محمد صلى الله عليه وسلم، حتي أن الجاليات الأجنبية التى كانت معاشرة لهم كانوا يطلقون عليهم هذا اللقب. قال الله تعالى «قالوا (يريد اليهود) ليس علينا فى الأميين سبيل» أى ليس علينا ذم إن ظلمناهم لانهم ليسوا من ديننا، فأطلقوا عليهم وصف الاميين، وقد كان كافيا فى الدلالة عليهم.

فاذا كان العرب أمة أميه، وهو مالاسبيل إلي إنكاره، فكيف يعقل أن يكون لديهم أدب بمعناه الفنى؟ أين عهد مثل هذا الامر، وفي اي جيل، حتي يعهد عند الأمة العربية؟

المعهود حسيا أن الأمة إذا كانت أمية كانت فى أحط درجات الجهل، فاذا

تحركت لأن ترتفع عماهى عليه درجة واحدة فأول وسيلة تتخذها هىأن تتعلم أن تكتب ماتلفظه وأن تقرأه . وليس فى الأرض أمة من أول وجودها الى اليوم الا كانت فاتحة نهوضها رفع الأمية عنها أوعن عدد كبير من آحادها. فاذا ارتفعت الامية عن قسم منها تدرج هذا القسم فى الارتقاء ، فنشأ فيها أدب ساذج وعلم فى درجته ، ثم لا تلبث أن تتقدم إلى الامام خطوة أخرى حتى ينضج أدبها وعلمها بعين حين .

هذه سنة الله في الخلق ، ولا يعقل أن تتخلف على الاطلاق ، وقد اعتبر الله تخلفها خرقا للعادة وجعلها معجزة لخاتم رسله . فقال تعالى : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون » : أي لو كنت يامحمد غير أمى لارتاب المبطلون فى إتيانك بالقرآن ، أما وأنت أمى لاتقرأ ولا تكتب فكيف يعقل أن تأتى بكتاب تمليه على غيرك ؟

ربما اعترض علينا معترض فقال : ألم يصلنا عن الجاهلية شعر ، أليس الشعر فنا من فنون الأدب ؟ .

نقول نعم ولعامتنا شعر ، ولعوام كل أمة أشعار بلغاتها المختلفة ، ولكن هل مجرد قرض الشعر يدل على عدم الأمية وعلى وجود الأدب بمعناه الفنى ؟ .

اللهم لا ، فالشعر الجاهلى ، وهو كل مايستطاع الاحتجاج به ، لايدل على وجود الفن الأدبي فى الجاهلية ، كما لايدل كل شعر لأمة أمية على وجود هذا الفن لديها .

فعرب الجاهلية لم يكن لديهم أثارة من علم كما يقول الكتاب عنهم ، يمكن أن يدلوا بها الى غيرهم ، كما لم يكن ولا يكون عند أية أمة أمية أثارة من علم تدلى به الى غيرها . قال تعالى : « ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » وقال سبحانه : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون الا الظن وإن أنتم إلا تخرصون » .

وقد عاش اليمنيون فى اليمن واللخميون فى العراق والغساسنة فى جنوب سورية تحت سلطان الفرس أو مجاورين لهم وللرومان ولم يأخذوا أخذهم فى رفع الأمية عنهم ، لذلك لم تصلنا منهم ورقة واحدة مكتوبة ، فلو كان عندهم أى فن أدبى أو غيره لنقله عنهم رواة اللغة الذين اختلطوا بهم وبغيرهم من القبائل ولبثوا بين ظهرانيهم سنين . فهل كان هؤلاء الرواة يحرصون على الألفاظ والأساطير هذا الحرص كله ولا ينوهون بكلمة عن أدب العرب وعلومهم ، وهم رواد الأدب العربى ، وقد جشموا أنفسهم الحياة وسط القبائل سنين لدراسة أسبابه ، فلم يجدوا غير ألفاظ اللغة فحفظوها عنهم ونقلوها الينا ؟

ألم يكن جميع العرب الذين أسلموا جاهليين فى أمسهم ، فلو كان لديهم أثارة من علم فى أى موضوع من المواضيع مما كانوا يمارسونه على عهد الجاهلية ، أما كانوا يحملونها معهم في الاسلام فتعرف عنهم وتنسب اليهم ، لاسيما والاسلام يحض على طلب العلم ويعد أهله بالدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ؟

ولو كان فى اليمن أو العراق أو مملكة غسان أو فى قبائل نجد أو تهامة أو غيرها من التى قصدها رواة اللغة مسكة من علم ، لنقلها أولئك الرواة الينا وقد بالغوا

فى نقل كل شيء وجدوه لدى العرب حتى أخبار خيولهم و كلابهم .

ونحن فى القرن العشرين الميلادى اليوم ولدينا كتب وألوف من صحف لأمم كانت موجودة منذ ستة آلاف سنة ، وليس لدينا ولا صحيفة واحدة باللغة العربية عن أقرب عهد لجاهليتها . ذلك لأن الأمة العربية كانت أمية وكانت الأمية من صفاتها المميزة ، ناهيك بأمة ليس لديها أثر مكتوب فى شئونها الدينية ، على حين أن لجميع الأمم التى لعبت دورا فى التاريخ كتبا مدونة فيها ولو كانت وثنية .

لا نقول هذا غمطا لحق الأمة العربية ، ولكنا نقرر حقيقة تاريخية ، وهى أن الأمة العربية طبعتها طبيعية بلادها والأحوال التى أحاطت بها بطابعين : الحالة القبيلية ، والأمية ؛ لذلك لم تستطع جهة من جهاتها أن تحفظ استقلالها أمام الأمم المعاصرة لها ، فاستولى الفرس والرومانيون على الأقطار المجاورة لهم منها ، حتى حدثت الحبشة نفسها بفتح اليمن ، ونفذت ماصممت عليه ، وعجز أهل اليمن عن إجلائهم عنها ، فاستغاثوا بالفرس ، فأرسلوا جيشا وطردوا الأحباش وحلوا محلهم فيها ، ومازالوا حاكمين فيها حتى أنقذها الاسلام منهم كما أنقذ العراق ودولة غسان أيضا .

فالاسلام وحده هو الذى وحد قبائل العرب وأسقط ما بينهم من فروق قبيلية ومن إحن وضغائن جعلت جماعاتهم أشبه بالأمم المتعادية ، لا تفتر عن التناحر والتناهب طرفة عين . والاسلام هو الذى رفع عنهم طابع الأمية ودفعهم لطلب العلم دفعا لا هوادة فيه ، وقد بدأ النبي ﷺ برفع هذا الطابع بعمل لم يسجل

مثله لمصلح فى الأرض ، وذلك أنه جعل فداء الأسير الذى كان يعرف القراءة والكتابة فى وقعة بدر ، وهى أول الوقائع الاسلامية ، أن يعلمهما نفرا من المسلمين ، ففعل . فبفضل الاسلام استقامت الأمة العربية على نهج الأمم التى كتب لها بلوغ أقصى الغايات من النظام والتوسع واحتمال التبعات العالمية ، مما لايوجد له نظير فى الأرض . وبفضل الاسلام يسجل التاريخ للامة العربية أنها كانت محيية العلوم الدارسة ، والفنون الطامسة ، وأنها كانت سببا لايقاظ البشرية من سباتها العميق ، ودفعها فى سبيل الحياة والمدنية . وفوق هذا كله فنحن أبناء الاسلام لا أبناء العرب ولا الفرس ولا غيرهم ، قد وحد بيننا الاسلام وأهدر فى سبيل هذا التوحيد قومياتنا وجنسياتنا ، تذرعا لتكوين أمة عالمية كانت وستكون مثالا أعلى للاجتماع الانسانى الصحيح . وقد بارك النبى ﷺ هذا العهد بقوله : « لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بآبائها » فلا نقبل أن نعيدها جذعة ، فرغم التاريخ على أن يقول في جاهليتنا ما ليس بحق ، وقد مضت تلك الجاهليات مرذولة مذمومة إلى حيث لا تعود : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » وقد أنجز الله وعده فكانت هذه آية الاسلام الكبرى إلى يوم الدين » .

« طبق الأصل » — محمد فريد وجدي

الرد على هذا التعليق

وتفنيد مافيه من شبه زائفة

اغتبطت بهذا التعليق على مقالي لسببين :

أولهما -- أنني إذ اكتبت في فكرة من الفكر كانت تلك الفكرة عقيدة راسخة في نفسي استوى لها برهانها ، وقام عليها دليلها الصادق ـ في نظري على الأقل ـ ولاريب أن كل كاتب مخلص لعقيدته الفكرية يود من كل قلبه أن يدور حولها البحث العلمي ازداد تأييدا وقوة ، أو يصحح ماعسى أن يكون فيها من خطأ فكري .

ثانيهما ـ أنني أرى أنه قد آن للناس في هذا العصر المليء بالنهضات الثقافية على ضوء الدراسات التحليلية أن يعرفوا من الحقائق التاريخية عن الأمة العربية المجيدة ماعرفوا مثله عن اليونان والفرس والمصريين والرومانيين وسواهم من الأمم التي عاصرت العرب في أقدم أزمانهم حتى يصححوا معلوماتهم على مقتضى ما أثبته تاريخهم وما كشفه العلم والبحث الحديث على يد علماء الآثار من حقائق ذلك التاريخ ، وحتي يربطوا حديث العرب بقديمهم كما ربطوا حديث كل أمة من تلك الامم التي طال مقامها على الارض بقديمها ، ووصلوا حاضرها بماضيها ، تحقيقا للوحدة التاريخية التي تظهر الباحثين على علة النضج الفكري للامة في عصرها القريب إذا عثروا على ثمرة فكرية وتراث أدبي منسوب الى تلك الامة ،

إذا الطفرة في أطوار الامم ونهضاتها الأدبية لاتتمشى مع قواعد علم الاجتماع وسنة الترقي فى الوجود .

فيجب أن يفهم التاريخ العربي كغيره من تواريخ الأمم كوحدة حيوية فهما تحليليا بعيدا عن الخرافات ، وتقليد الروايات المدفوعة في صحائف التاريخ دفعا لغرض من الأغراض المذهبية ، فهما قائما على تحقيق الأسباب المعقولة للتوفيق بين الآثار اللغوية والأدبية العظيمة ، وبين حال العرب يوم أن سطعت شمس الدعوة المحمدية على العالم أجمع من أفق الجزيرة العربية .

من هنا رأيت واجبا على دفعا عن فكرتى ، وصونا للحقيقة التى أعتقدها وتحقيقا للمصلحة العلمية ، وإنصافا للتاريخ ، وإشادة بذكر أمة مجيدة لها على الانسانية أعظم المنن أن أرد على هذا التعليق ، واضعا الحق في موضعه ، متوخيا الاختصار الذي لايترك شبهة قائمة في سبيل البحث بقدر مايتسع الوقت ، راجيا أن ينفسح المجال أمام الباحثين حتى تطمئن الحقيقة ، ويستقيم سبيل الحجة فى مهيع الصدق ومحجة الاخلاص .



فكرة التعليق قديمة

لا جديد فيها

ظهرت على أسلات بعض الأقلام فى هذا العهد الأخير كتابات تحط من شأن العرب فى عصورهم الأولى قبل أن تتشرف الحياة بالأسلام ، وتصورهم فى مستوي من الجهالة لايتفق والحقائق التاريخية .

لقد كنا نقرأ بعض ما كتبه الشعوبيون من المبالغات في توهين أمر العرب قديما فنعزوه الى نقص فى فطرتهم والى سوء انطوت عليهم طويتهم ، ولكنا أصبحنا اليوم أمام مبالغات من طرز جديد فى الغض من قيمة الأمة العربية يرتكبها بعض من يعالجون الكتابة في مسائل التاريخ والعلم والأدب والاجتماع ، عليها مظهر الدراسات التحليلية ، والبحث العلمى ، وليست منهما فى شيء .

فنحن حيال ما كتبه أولئك الشعوبيون لا نشعر بأقل حرج ، لانه واضح البطلان ، يرد نفسه بنفسه ككل شيء خارج عن حدوده الطبيعية ، ولكنا حيال الكتابات التى عليها مسحة التعصب للاسلام فى مظهر يخيل للقارىء أنه أسلوب علمى نشعر بكثير من الاشفاق على هؤلاء الكاتبين ، ونشعر بكثير من الضيق لانه أسلوب محاط بعوارض تجعله يسلك الى الاذهان الخالية من ملكة الفقه والنقد فيرسخ فيها وينتج نتائج خطيرة على الدين والتاريخ ، والعلم والأدب .

وهكذا احتفت بالنهضة الفكرية الحديثة تيارات مختلفة المنشأ والاتجاه ، وقد اتسع تاريخ العرب والاسلام للكثير منها ، ولا يكون مبالغا من يقول: إنه مامن فكرة فى عصرنا تتصل بتاريخ العرب والاسلام مجانبة للحق إلا وهى تضرب بعرق فى ثرى فكرة سلفت ، باعدالله بينها وبين الصواب بقدرماباعد بينه وبين صورتها التى تظهر فى زماننا على أقلام نفر من الباحثين ، وإن حاول باعثوها من رمسها أن يخلعوا عليها طرزا جديدا ، وهم يعلمون أن جدة القالب لاتغير شيئا من طبيعة الفكرة وحقيقتها ، وهذه الفكر العاصفة لم تنل فى القديم من تاريخ العرب والاسلام شيئا ، لقوة الحيوية التي منحها الله للشعب العربي المجيد ، وللروح السامى الخالد الذى انطوت عليه شريعة الاسلام . ولأمرما اختارالله صاحب الدعوة الى هذا الدين القويم ﷺ من صميم هذا الشعب الكريم .

الشعوبية والعرب

والبحث الذى بين أيدينا يتصل اتصالا وثيقا بفكرة قديمة ومذهب معروف ، هو مذهب فرقة سمت نفسها « أهل التسوية » واشتهرت فى التاريخ العربى الاسلامى باسم « الشعوبية » وهى فرقة من العجم(١) كما يقول الزمخشرى ، والجوهرى ، وابن منظور ، والفيروزبادى - تصغر شأن العرب ، ولا يرون لهم فضلا عليهم ، قال ابن عبدربه فى العقد : « ومن حجة الشعوبية على العرب أن

(١) العجم فى اصطلاح التاريخ الاسلامى هم من عدا العرب

قالت : إنا ذهبنا الى العدل والتسوية ، وإن الناس كلهم من طينة واحدة ، سلالة رجل واحد ، واحتججنا بقول النبي ﷺ : «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم ادناهم ، وهم يد على من سواهم» وقوله في حجة الوداع : «أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى» وقال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب : وأما أهل التسوية فإن منهم قوما أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ، ولم يفتشوا عن معناه ، فذهبوا إلى قوله تعالى : «إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقوله : «إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم» والى قول النبي ﷺ : «أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس لعربي على عجمي فخر الا بالتقوى ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب» وقوله : «المؤمنون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم» وكان جماعة من الشعراء من أضراب أبي نواس ، وبشار ، واسماعيل ابن يسار ، وديك الجن الحمصي ، قد شهروا أنفسهم بهذا المذهب ، وروى أن ديك الجن كان يقول : «ما للعرب علينا فضل ، جمعتنا وإياهم ولادة ابراهيم عليه السلام ، وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلا منا قتل به ، ولم نجد الله عز وجل فضلهم علينا إذ جمعنا وإياهم الدين» .

هل يريد الاستاذ فريد وجدي وهو يعالج الكتابة منذ زمن طويل أن يجعل له قدمة عند شعوبية العصر الحديث من المسلمين الجغرافيين ، فهو يقول : «وفوق هذا فنحن أبناء الاسلام ، لا أبناء العرب ، ولا الفرس ، ولا غيرهم ، قد وحد بيننا

الاسلام ، وأهدر في سبيل هذا التوحيد قوميا تنا وجنسيا تنا . . . وقد بارك النبي ﷺ هذا العهد بقوله : « لقد أذهب الله عنكم رجس الجاهلية وتفاخرها بآبائها » ؟؟!! . وكان أبو عبيدة يدين به وذكر المؤرخون أنه ألف كتابا في مثالب العرب

ونحن مضطرون الى أن نرجع هذا الى ذاك تقريرا لما يفهم من الكلام بداهة وتسجيلا للحقيقة في ذاتها ، دون أن يكون لنا من الأمر شيء سوى رد الفرع الى الأصل ، لأن ما يقوله الاستاذ هو عين ما كان يقوله الشعوبية ، وعلى أساسه سموا أنفسهم أهل التسوية ، فلا نقبل أن نعيدها جذعة ، فنرغم التاريخ على أن يقول في العرب ما ليس بحق ، وقد مضى عهدهم الأول معروف المحامد والمذام شأن كل أمة ذات التاريخ يحياتها . وقد بارك النبي ﷺ تلك المحامد ، وجعلها مناط شرف للعرب وفخار لهم على سائر بني آدم ، فقد روى الترمذي وحسنه والبيهقي مسندا عن العباس رضي الله عنه قال قال النبي ﷺ : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم ، من خير قرنهم ، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفسا ، وخيرهم بيتا » وروى البيهقي في الدلائل ، وابو جعفر بن جرير الطبري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أنه ﷺ قال : « إن الله عز وجل اختار خلقه ، فاختار منهم بني آدم ، ثم اختار بني آدم (فاختار منهم العرب) ثم اختار العرب ، فاختار منهم قريشا ، ثم اختار قريشا ، فاختار منهم بني هاشم ، ثم اختار بني هاشم ، فاختارني منهم ، فلم أزل خيارا من خيار ، ألا من أحب العرب فبحبي أحبهم ، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم »

وعن عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله اختار العرب على الناس ، واختارنى على من أنا منه من أولئك العرب » وعن أبى هريرة مرفوعا بسند حسنه الحافظ العراقى : « إن الله حين خلق الخلق بعث جبريل فقسم الناس قسمين ، قسم العرب قسما ، وقسم العجم قسما ، وكانت خيرة الله فى العرب ، ثم قسم العرب قسمين ، فقسم اليمن قسما ، وقسم مضر قسما ، وكانت خيرة الله فى مضر ، وقسم مضر قسمين فكانت قريش قسما ، وكانت خيرة الله في قريش ، ثم أخرجنى من خيار من أنا منه » . وروى الطبرانى عن على رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : « لا يبغض العرب إلا منافق »

والقول الفصل فى هذا المقام ماروواه البخاري فى صحيحه من قول النبى صلوات الله وسلامه عليه «تجدون الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية خيارهم فى الاسلام إذا فقهوا » فهذا التشبيه البليغ يبين بيانا لاشبهة فيه أن من الشرف شرفا ذاتيا يرجع الى الاحساب العنصرية والطبيعة الجنسية والفطرية الانسانية لا يتغير كما لا تتغير طبيعية المعدن ، بل تزاد حسنا بالصياغة والسبك ، فكذلك الناس في مناقبهم وشرفهم بأحسابهم هم على ماكانوا عليه ، فاذا انشرحت صدورهم للاسلام ، وفقهوا دين الله، زادهم ذلك نبلا وفضلا ، وإلا كانوا حيث هم من شرفهم فى الدنيا ، وحرموا اشرف الدين وفضيلة الآخرة ، ويظهر هذا بالموازنة بين رجلين تساويا في الفقة والدين ، وكان أحدهما من أشراف الجاهلية ، والثانى من قوم غيرهم . فلاشك حينئذ في الحكم بأفضلية شريف الجاهلية المفقه فى الدين على صاحبه . ولاشك أن جهة الأفضلية ليست التقوى ولاما يرجع الى الدين .

لان المفروض تساويهما فى هـذا . فلم يبق الا اعتبار شرف الاحساب والمناقب الذاتية للجنس ، وهى مناط الاختيار في الاحاديث السابقة الدالة على اختيار الله للعرب على سائر الخلق . ولا يستطع أحد أن يزعم مدخلية الدين هنا ، لان المقام مقام التحدث عن العرب كجنس من الناس اختيررا ليصطفي الله منهم نبيه وخاتم رسله

هكذا فهم العلماء هذه الأحاديث الشريفة وجعلوها دافعة لشبه الشعوبية . قال الشهاب الخفاجى فى شرح الشفاء بعد أن ساق بعض الاحاديث السابقة : « وفى هذا رد على الشعوبية ، وهم قوم يفضلون العجم على العرب ، ولهم أدلة على مقالتهم بنوها وماعليها وأوردوا الأحاديث الموضوعة »

أما ما تمسكوا به من الآيات والأحاديث ، وتابعهم عليه الاستاذ محمد فريد وجدى ، فقد بين العلماء الاعلام عدم فقه منتحلى هذا المذهب لتلك الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة . قال ابن قتيبة بعد سوق عبارته السابقة التى عرض بها دعواهم وأدلتهم :

« وإنما المعنى في هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء فى طريق الاحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة ، لو كان الناس كلهم سواء فى أمور الدنيا ، ليس لأحد فضل على أحد إلا بأمر الآخرة ، لم يكن فى الدنيا شريف ولا مشروف ، ولا فاضل ولا مفضول ، فما معنى قوله ﷺ : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » وقوله ﷺ : « أقيلوا ذوى الهيآت عثراتهم » ؟

وجه البحث

كتبت كلمتي الأولى فى « الحياة الأدبية عند العرب » وأثبت فيها بأدلة من القرآن الكريم ومن روايات التاريخ ، وأقوال علماء اللغة والأدب أن العرب لم يكونوا قبل الاسلام في حياة أولية ساذجة ، لاأثر فيها للتفكير وإنما كان فريق منهم وهم عرب الشمال فى دور بداوة طارىء عليهم ، لأن طبيعة إقليمهم لاتساعد على قيام حياة اجتماعية متحضرة كالتى قامت فى الجنوب ، وكنت لم أكمل البحث لبيان الفرق (١) بين الحياة الأدبية ومؤثراتها التى نحن بصدد البحث فيها ، وبين الحياة الاجتماعية ومؤثراتها ، وهى التي وجد الاسلام نوعا منها عند العرب مضطربا مفككا منحلا ، فوجه إليه أشعته الاصلاحية ، فابتدر الاستاذ الفاضل « محمد فريد وجدى » الى التعليق بمقال ضافى الذيول متسع الانحاء — كما رأيت — لم يتعرض فيه لمناقشة الأدلة التى سقتها تأييداً لفكرتى ، وإنما ذهب فى البحث مذهب العرض والاستبعاد المجرد ، كما يظهر من مراجعة تعليقه الذي أثبتناه بنصه في هذه الرسالة ، ولكى نوفي البحث حقه نلخص مافى التعليق من فكرة ونردعليها ، ثم نرجع الى بعض مناقشات نرى أن البحث يتطلبها حتي ننتهى بالحقيقة في مكانها من العزة والتقديس .

---

(١) ترى ذلك في مقالنا الثانى الذى نشرناه فى المجلة مكملا لبحثنا وأثبتناه بنصه هنا .

خلاصة التعليق

ويتلخص لباب التعليق في «أنه اذا صح أنه كان للعرب حضارة في أقدم أزمانهم قبل الاسلام كالتي تحدث عنها ابن خلدون وغيره كان في ذلك غض من قيمة الرسالة المحمدية . فلا تكون قد أخرجت العرب من الظلمات الى النور ، ولا أوجدت فيهم وحدة اجتماعية ، ولا بثت فيهم من الاخلاق والآداب ما كانوا فى أشد الحاجة اليه ، وأن التاريخ دل على قيام أربع دول في اليمن ، وهي المعينية ، والسبئية والحميرية ، والتبابعة ، فلم يصلنا من واحدة منها كتاب مخطوط ، أو أثارة من علم ، وأنه كان على عهد البعثة المحمدية ببلاد العرب ثلاث ممالك : اليمن ، ودولة اللخميين بالعراق ، والغساسنة فى مشارف الشام ، وكانت هذه الدول محتفظة بوصفي الجاهلية العربية ، وهما البداوة والأمية ، وأن الأمية كانت الوصف المميز للأمة العربية من أقدم أيامها ، وأنه لا يعقل أن يكون لدى العرب قبل الاسلام أدب فنى ، وأن الشعر العربي القديم لا يدل على وجود الأدب الفنى عندهم ، لأن لعامتنا شعرا ولعامة كل أمة شعر . وأنه يجب إغفال تاريخ الطبقة الأولى من العرب عند البحث في حالة العرب قبل الاسلام ، لغموضه وتغلغله فى القدم ، ولما حدث من الانقلاب فى الأمة العربية »

اتجاه الرد

ليرجع القارىء الكريم إلى ما كتبته فى مقالى الأول ، والى مانقلته عن ابن خلدون،فلن يجدنى ادعيت فى كلامى، ولا ادعى ابن خلدون فى عبارته أن العرب على عهد البعثة المحمدية كانوا على هدى من ربهم ، وأنهم كانوا فى نور دينى،ووحدة اجتماعية ، وفضائل خلقية ،وآداب نفسية ،حتى يصح أن يزعم علينا الأستاذ الفاضل أن فى كلامنا غضا من قيمة الرسالة المحمدية . ولا شك أنه مقدر تمام التقدير خطورة هذا الاستنتاج ومافيه من بعد عن الأناة الفكرية فيما يمس العقيدة الدينية ، وما يدفعه عن نزاهة البحث والتفكير .

والذى قاله ابن خلدون وتابعته عليه : أن العرب الأقدمين بلغوا الغاية من الحضارة والملك ،وقد زدت عليه ، أن العرب قبل الاسلام لم يكونوا فى حياة أولية ساذجة لا أثر للتفكير فيها، لأنه يبعد أن تبلغ أمة من الأمم فى قديمها هذا المبلغ من الحضارة ثم لا يكون فيها شيء من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية . فأين وجد الاستاذ فريد وجدى فى كلامى ،أو فى كلام ابن خلدون، حديث الظلمة والنور ، والوحدة الاجتماعية ، والفضائل الخلقية ، والآداب النفسية ؟ وكلام ابن خلدون صريح فى أنه يريد العرب العاربة، وهى الطبقة الأولى التى سبقت الاسلام بآلاف السنين ومن جرى مجراهم من القحطانيين فهو يقول: « وما كان لأحد من الامم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ، ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك » . ويقول فى موطن آخر : « وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة

وإن ملك العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافا من السنين فى أمم كثيرين منهم، واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم ، والتبابعة والأذواء ، فطال عليهم أمد الملك والحضارة ، واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلى الدولة » .

فنى أي هاتين العبارتين وجد الأستاذ مازعمه غضا من قيمة الرسالة المحمدية ؟

أما كلامى فصريح فى أني أتحدث عن وجود حياة أدبية عند العرب، واستعداد فكرى فيهم ، كانا أثرا لحياة حضرية ماضية طويلة العهد ، كما هو ظاهر من عنوان المقال ، ومن العبارة التي ساقها الاستاذ فريد وجدى فى تعليقه وجعلها موضع نقده . وقد صرحت فى آخر المقال بأن الحجازيين — وهم الذين ظهرت بينهم الدعوة المحمدية التي أخرجت الناس من الظلمات الى النور — كان لهم من طبيعة وطنهم ماصبغ حياتهم الاجتماعية بصبغة تخالف صبغة إخوانهم فى اليمن والحيرة والشام . بل غلبت عليهم البداوة ومايتصل بها من أخلاق وعادات .

والذى نلاحظه ونود أن يسجله القارىء فى ذهنه :

(١) أن العلامة ابن خلدون لم يتعرض فى حديثه عن الحضارة العربية الى العرب الذين كانوا على عهد البعثة المحمدية ، وظهرت بينهم الدعوة الاسلامية ، بل إن كلامه صريح فى العرب العاربة ، ومتابعيهم في تاريخهم من القحطانية وهم أقدم أجيال العرب . والأستاذ فريد وجدى ينصب كلامه فى تعليقه على العرب عامة وفى زمن الدعوة الاسلامية ، فلم يلاق ابن خلدون فى ميدان ، ولا تعلق له بغبار .

(٢) أن موضوع بحثى الحياة الأدبية البلاغية التى تتنافى مع الجهالة والبلادة الذهنية ، كما يبدو واضحا فى قولى بعد سوقي آيات القرآن التي تصف العرب

بالبيان والفصاحة ، والاشارة إلى مقام التحدى من القرآن : « فهل كانت تلك الأوصاف كلها وهذا التحدى للعرب وهم فارغون من أدب حى يغذى عقولهم ، ويربى نفوسهم تربية أدبية (تأمل) تقوم على التفاصح بما يخلب الألباب ، ويستميل الأسماع ، من منطق حسن ، وكلام بليغ ، وبيان بديع (تأمل) فى فنون من المعارف الانسانية الأدبية ، يستحقون بها تلك الأوصاف ، ويصح أن يتوجه اليهم هذا التحدى ، وكيف يقع هذا التحدى الصارم لقوم ذوى عى وحصر ، وضعف فى المنة العقلية يعيشون عيشة أولية فى حياة بليدة جاهلة ؟ » .
والأستاذ فريد وجدى انساق فى تعليقه إلى حديث الوحدة الاجتماعية ، والحياة الدينية ، والفضائل الخلقية ، وهذه لم أتعرض لها إلا بما جاء فى آخر المقال من تصريحى بأن الفوضى الاجتماعية كانت سائدة فى شمال الجزيرة العربية ، فلم يصب الاستاذ محزا ، وقبض فى تعليقه بكلتا يديه على الريح ، وإنى وإياه لكما قال الشاعر:

سارت مشرقة وسرت مغربا شتان بين مشرق ومغرب

عظمة الرسالة المحمدية

أقحم الأستاذ الفاضل الدين فى البحث إقحاما ، ورأى أن فيما قرره ابن خلدون ، وفيما عقبت به على قوله غضا من قيمة الرسالة المحمدية ، وقد رأيت أن كلام ابن خلدون وكلامى فى التعقيب عليه لا يعبق من واحد منهما رائحة القرب من حمى الرسالة المحمدية بله الغض من قيمتها ، ولكن لا علينا إذا ألقينا للقلم العنان ليجول في ميدان الأستاذ الفاضل « محمد فريد وجدي » جولة تأتي على بعض الحق:

لنفرض أن العرب كلهم كانوا على عهد البعثة المحمدية متحضرين حضارة تبز أعظم حضارات الأمم المعاصرة لنا الآن من أمم أوربا ، فكيف يكون فى وجود تلك الحضارة غض من قيمة الرسالة المحمدية ؟ كأن تلك الرسالة العظمى لا يعلو شأنها ولا تكتمل عظمتها إلا إذا انحط شأن المدعو بها فكريا واجتماعيا ، وكأن تلك الرسالة السامية ماجاء الله بها إلا لدعوة قوم جهلاء بلداء الأذهان منغمرين فى ظلمات البداوة ، أليس هذا هو الغض من قيمة الرسالة المحمدية ؟ ! !

نعم : إن عظمة الرسالة المحمدية ليست فى أنها أخرجت العرب الأميين الجهلاء من الظلمات إلى النور ، ولكنها فى شيء وراء ذلك هو أعظم وأجل منه ، عظمتها فى استعدادها الذاتى بما اشتملت عليه من تشريع عادل حكيم يتفق وصوالح الانسانية في كل زمان ومكان وجيل ، وماجاءت به من أدب اجتماعى يقوم عليه بناء مجتمع إنساني راسخ القواعد يقود الحياة الى سعادتها ، فى استعدادها بذلك لاخراج الأمم المتحضرة المتعلمة من ظلمات الحضارة المستبدة الطاغية التي تستخدم العلم تبريرا لاستبدادها وطغيانها ، عظمتها في إيقاظ النفوس الفاضلة الى ماحجبت عنه من هداية سامية ، عظمتها فى إمداد العلماء بغذاء أفكارهم الصديانة الى نور الوجود وسرائر الكون ، عظمتها فى أن تكشف للطبيعى والقانوني ، والفيلسوف الالهى ، والخلقى ، والأديب ، والاجتماعي ، والسياسى ، عن آيات الله فى الحياة ليشهدوا الحق فى أنفسهم وفيما يحسون من مظاهر الحياة ويؤمنوا إيمان العالم الحكيم ، عظمتها فى أن تنقذ الانسانية من ظلم العدالة ، وتخرجها من ظلمات التضليل باسم

الحضارة والعلم ، عظمتها فى تخليص الارواح و القلوب والعقول من ربقة الافتتان بزائف الحضارات الضالة و تطهير الابدان من أرجاس المدنيات الكاذبة وهى المعجزة الخالدة ، والآية الكبرى للاسلام ، والمعنى المقصود بعموم الرسالة المحمدية إلى الاحمر والأسود ، والجاهل والمتعلم ، والحاضر والبادى ، وهذا هو سر تعلق الاخراج من الظلمات إلى النور بالناس فى قول الله تعالى : (كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد) فانه لما تعلق بالعام تقريرا لعموم الرسالة كان حتما فيه إرادة معنى يتسامى الى مايتناسب مع طوائف الناس حضارة وبداوة واختلافا فى أفكارهم وفطرهم وبيئاتهم علما وجهلا في مشارق الأرض ومغاربها الى أن يرث الله الأرض ومن عليها . وانظر الي سر آخر من أسرار القرآن الحكيم يشرح لك هذا المعنى العزيز البديع ، وهو قوله تعالى بعيد تلك الآية الكريمة : (وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) فانه لما تعلق بأمر خاص كان المراد به معنى خاصا ، فأفهم سر « القوم » هنا وخصوصه وسر « الناس » هناك وعمومه ، وهذا من أعاجيب إعجاز القرآن الحكيم .

فالظلمة التى جاءت الرسالة المحمدية لاخراج الناس منها الى النور إنما هى ظلمة الوثنية والاشراك بالله تعالى ، والالحاد فى آياته ، والنور إنما هو نور التوحيد الخالص ، والعلم النافع ، وهذا يستوى فيه البدوى والحضرى ، والجاهل والعالم ، بل إن مجاهدة العالم المتحضر أجل وأنفع ، وأشد وأعظم . ولاريب أن الاستاذ « محمد فريد وجدى » ، وهو الباحث الاجتماعى ، يعلم أن ضلال العلم أخبث من ضلال الجهل ، قال الله تعالى : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم

وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) .
وعلماء الاجتماع يقررون أن البدو أسرع قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات ، وبراءتها من ذميم الاخلاق ، إلا ماكان من خلق التوحش والجفاء القريب المعاناة المتهيء لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى . ولو صح مازعمه الاستاذ وجدى لكانت الأمم المعاصرة لنا الآن التى بلغت من الحضارة مبلغا فاق كل تصور مع ماهى عليه من ضلالات فى الدين ، وإلحاد بظلم ، واستبداد فى خلق الله ، وسوء عقيدة بالله تعالى ، وفوضى في الخلق والآداب الاجتماعية ، وتدهور في نظام الأسر والحياة العائلية ، بل وفي الحياة الاجتماعية ومافيها من بلشفة مدمرة ، وشيوعية ساحقة ، لكانت تلك الامم في غنية بحضارتها الطامة عن دين الاسلام . ولو استطاع الاسلام أن يصل إليها ويطهرها من زيغها فى الدين وكفرها بربها لكان فيما هى عليه من حضارة وعلم بالغين الغاية غض من قيمة الرسالة المحمدية ، لأنها لاتكون حينئذ قد أخرجت هذه الأمم من الظلمات الى النور ، ولا أوجدت فيهم أدبا اجتماعيا لم يعرفوه من قبل ، ولا بثت فيهم من الأخلاق والآداب ، وصحة العقيدة ماهم في أشد الحاجة إليه ، ولا آتتهم دستورا يفضي بهم السير عليه إلي تبوؤ خلافة الله فى الأرض تحقيقا للوحدة الانسانية فى ظل شريعة الاسلام ؟ ! !

الرسالة المحمدية شأنها مع العرب كشأنها مع أية أمة أخرى قديمة أوحديثة ، حاضرة أوبادية ، فهى كما أخرجت العرب من ظلمات الشرك والجهل الدينى ، والفوضى الاجتماعية التى لحقتهم فى طور بداوتهم ، إلى نور التوحيد ، والعلم بالله

وشرائعه، ونظام الحياة، قد أخرجت الفرس والرومان والمصريين والهنود وسواهم من الامم المتحضرة العالمة، ونقلتها من ظلمات حالكة كانت ضاربة فى أفق الحضارات القديمة إلى نور العدل والحق، وهى مستعدة بطبعها إلى يوم القيامة أن تخرج كل أمة مهما بلغت من العلم والحضارة من الظلمات إلي النور، أو مهما انحطت إلى دركات الفوضى والجهالة، وفى كل واحدة لها أعظم الفخر والجلال.

فمن الخطأ البين الذى يجب أن تتضافر جهود الباحثين من رجالات الاسلام فى الكشف عن دخيلته وإظهار عواره، ربط عظمة الاسلام، وقيمة الرسالة المحمدية بانحطاط الامة العربية، ووصمها بالجهالة الفكرية، لأن فى هذا تصغيرا لشأن الاسلام، وتحديدا لمهمته، وغضا من قيمة الرسالة المحمدية العالمية، لأن الاسلام دين الانسانية كلها، لا دين العرب وحدهم، وما العرب إلا جنوده الأول الذين حملوا هديه وآدابه للناس أجمعين.

حضارة العرب

قد عرفت أيها القارىء الفاضل رأى فيلسوف التاريخ العلامة ابن خلدون فى حضارة العرب القدامى، وعرفت سبيل تعليق الأستاذ « محمد فريد وجدى » عليه، والآن نحب أن نذهب بك مذهبا جديدا يعتمد على البحث العلمى فى نظر الأستاذ الفاضل، ولا يعتمد على المبالغات التي تعزى لنقص فى الأسلوب التمحيصى!!:

لندع إذا ماقاله ابن خلدون عن تلك الحضارة ، وننظر فيما قاله الأستاذ الفاضل « محمد فريد وجدى » مؤلف دائرة معارف القرن العشرين فى تلك الدائرة عنها ، فانه أصرح ، وأدق وأقوم بالحجة فى إثبات حضارة للعرب علمية واجتماعية وأدبية ودينية ، ثم نقفى عليه بماقاله غيره من الباحثين ، معقبين على ماذكر بماجاء فى القرآن الكريم من إشارة الى شيء منها . قال الاستاذ وجدى فى المجلد السادس من الدائرة : « ثم إن الباحثين عثروا فى آثار بابل وآشور ومصر وفينيقية على شيء من تاريخ العرب فوجدوا فى بابل نقوشا بالخط المسماري ، وقفوا منها على تاريخ العمالقة من العرب البائدة ، واستدلوا من النقوش التي وجدوها في آشور وبابل على قيام دولة حمورابى العربية ، استولت على بابل عدة قرون قبل الميلاد بأكثر من ألفى سنة . ثم قال : قلنا إن العرب ملكوا العراق وأسسوا بها دولة ، ونقول إن تلك الدولة سماها المؤرخون المحدثون دولة حمورابى ، وهو اسم أكبر ملوكها ومؤسس أقدم شريعة فى العالم — تأمل — » . وقال : « الدولة المعينية لم يتنبه علماء التاريخ اليها الاحديثا ، ولم يكن لها ذكر فى تواريخ العرب أنفسهم ، وما نبههم اليها الا ورود ذكرها فى كلام المؤرخ اليوناني « استرابون » . . . وقد ثبت أن سلطان هذه الدولة امتد الى شواطىء البحر الأبيض المتوسط وشواطئ خليج العجم ، وبحر العرب ، أى أنها استولت على جميع شبه جزيرة العرب ، وكانت دولة تجارة وسلام ، لافتح ولاحرب » . وقال : « لم يرد ذكر الدولة السبئية فى كتب مؤرخى العرب بتفصيل يحسن السكوت عليه ، وقد هدى علماء الآثار من الأوربيين الى أطلال مدنيتهم القديمة فى اليمن ، فذكروا

عنهم وعن لغتهم وحياتهم الاجتماعية شيئا يطمئن اليه القلب » . وقال : « إذا ذكر العرب الانباط فى كتبهم أرادوا أهل العراق ، وقد تحقق المنقبون فى الآثار ، والمتتبعون لتواريخ اليونان والرومان وماذكر فى التوراة أن دولة الانباط كانت عربية . . . . الى أن قال : كان للنبطيين ملوك ووزراء ونظام سياسى واقتصادى » . وقال تحت عنوان (مدنية العرب فى اليمن) : « تبين القارىء مما تقدم أن أهل اليمن لم يقلوا عن أهل مصر وفينيقية مدنية فى العصور القديمة (تأمل) ـ إذ كان منهم الملوك الفاتحون ، والتجار المتنقلون ، وكان لديهم مدن عامرة وآثار جميلة . . . وكانوا يفلحون الأرض ويستثمرونها ، وكانوا يستخرجون المعادن من باطن الأرض كالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وكانت لهم قصور شاهقة ، كقصر غمدان ، وقصر ناعط ، وقصر ريده ، وقصر صرواح ، هذا غير القلاع والسدود والجسور . قال الهمذانى وياقوت : إن الذى بنى قصر غمدان الملك اليشرح يحصب . فيكون قد بنى في القرن الأول الميلاد وبقى الى عهد عثمان بن عفان ، ويكون قد قاوم أفاعيل الطبيعة نحوا من ستة قرون ـ تأمل ـ وقد شاهد الهمذانى أطلاله فقال : (إنه كان مؤلفا من عشرين طبقة بين كل سقف عشرة أذرع ، وقال : إن بانيه لما بلغ به غرفته العليا جعل سقفها رخامة واحدة شفافة ، وكان يعرف الموجود بها مايطير فوقه فيميز الغراب من الحدأة ، وكانت حروفه أربعة تماثيل من أسود نحاسية مجوفة ، رجلا الأسد فى الدار ورأسه وصدره خارجان من القصر ، وما بين فيه الى مؤخره حركات مدبرة ، فأذاهبت الريح فدخلت أجواف الأسود سمع لها زئير كزئير

الأسد ، وكان يصبح فيها بالقناديل ، فترى من رأس عجيب ، وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك اثني عشر ذراعا ، وكان للغرفة أربعة أبواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب ، وعند كل باب منها تمثال من نحاس إذا هبت الريح زأر ، وفيها مقيل من الساج والآبنوس ، وكان فيها ستور لها أجراس إذا ضربت الريح تلك الستور تسمع الاصوات عن بعد) » تأمل أيها القارىء وصف أحد القصور العربية تنقله عن شاهد عيان من المؤرخين دائرة معارف القرن العشرين الوجدية ، وهي بلاشك تؤمن بصحة هذا الوصف ، وإلا لعقبت عليه ناقدة كعادتها فيما ترى فيه باطلا أو بعدا عن الحقيقة . فهل شهدت الحياة حضارة لها نظير هذا المظهر الفخم الهائل ؟ وقال تحت عنوان (الحياة الاجتماعية للعرب قبل الاسلام) : «حالة العرب الاجتماعية قبل الاسلام كانت تابعة لحالتهم الاقتصادية كما هو الشأن في كل أمة ، فما كان من قبائلهم في خفض من العيش ، وفي بيئة مناسبة للرقي العقلي والصناعي بلغ من المدنية الشأو الذي بلغته أرقي أمة في زمانهم — تأمل — ومن كان في شظف منه بقي على حالة البداوة يعاني أهوالها ، ويكابد تكاليفها ، فقد بلغت عاد وثمود من المدنية شأوا بعيدا — تأمل — وقد دلت الآثار على أنهما بلغا من المدنية الى ما كانت تسمح به وسائل الناس . . . . وقد ثبت أن العرب ملكوا مصر في القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، وأسسوا فيها أسرة مالكة فلم يكونوا أحط من الأسر المصرية في شيء من مظاهر الرقي الصوري والمعنوي . ثم إن الدولة المعينية والسبئية والحميرية التي قامت باليمن نالت من بسطة الحياة وفخامة المدنية — تأمل جدا — حدا أدى معاصريهم من اليونانيين القدماء أن

يسموا بلادهم ببلاد العرب السعيدة . ناهيك أنهم وصلوا من المعارف الهندسية الى حد بنوا معه سد مأرب الذى يعد من أضخم وأبدع ماصنعه الانسان من الآثار الدالة على بعد النظر وكمال المعرفة — تأمل أيها القارىء — » . وقال : « أما مدنية تدمر فقد أطنبوا فيها فقيل إنه كان فيها شوارع وتماثيل وهياكل ، منها هيكل الشمس أو هيكل بعل وهو مربع طول كل ضلع من أضلاعه ٧٤٠ قدما يحيط به سور ارتفاعه ٧٠ قدما ، وفيه من الاسطوانات شيء كثير ، بقى منها قائما الى الآن نحو مائة اسطوانة ، ومنها الرواق الاعظم وقد كان قائما على بعد نحو مائتى متر من هيكل الشمس ، وكان يتألف من شارع أوسط وشارعين عن الجانبين ويمتد على طول المدينة ، وكان عدد أساطينه ٧٥٠ لا يزال قائما منها نحو ١٥٠ اسطوانه ارتفاع كل منها نحو ٥٧ قدما

ومن مباني تدمر العجيبة مدافنها ، وهى كالأبراج المستطيلة يزيد عددها على المائة » .

هكذا يقول الاستاذ الباحث المحقق « محمد فريد وجدى » مؤلف دائرة معارف القرن العشرين عن حضارة العرب العظيمة . فليس بصحيح مايقوله الاستاذ الفاضل « محمد فريد وجدي » مدير مجلة الازهر فى تعليقه على مقال (الحياة الأدبية عند العرب) من أنه لم يصلنا من واحدة من الدول العربية الأربع التي قامت فى اليمن كتاب مخطوط ، ولا أتانا خبر عن وجود أثارة من علم فيها . لأنه قد وصلنا مادونته دائرة المعارف الوجدية ، وهى ولا شك مرجع تاريخى عظيم ، وصح إذا ماقاله ابن خلدون وتابعه عليه من يعالج الكتابة في الأدب ، وليس

بصحيح أيضا ما يقوله الاستاذ الفاضل «محمد فريد وجدى» مدير مجلة الازهر فى تعليقه ، من أن هذه الدول كانت محتفظه بوصفى عهد الجاهلية العربية ، وهما : البداوة والامية ، بل الصحيح ماقررناه من أن البداوة والامية طارئة عليهم غير متأصلة فيهم ، وهـذا الدور هو الذى عنته آيات الـكتاب الـكريم التي وصفت العرب بالامية .

إلى هنا نمسك بعنان القلم لنقف قليلا إلى جانب هذه الـكلمة الفذة الناصرة للحق ، والتى قالها الاستاذ «محمد فريد وجدى» فى صراحة العالم الباحث ، وهى قوله : «أما أهل اليمن فحدث عن تمدنهم ولا حرج » . وهذا هو الذى كان يحوم حوله الباحث حتى وقع عليه ، وهذه هى القضية برمتها ، فقد قررنا فى صراحة حالة الحجاز من الشظف وسوء المعيشة وجدب الطبيعة مما قعد بأهله عن أن يكون لهم أى لون من ألوان الحضارة ، ولـكنا قررنا كذلك تبعا لفيلسوف التاريخ ابن خلدون أن اليمن بلغت من الحضارة مالم تبلغه أمة فى زمنها .

فأين يقع الاحتجاج بعبارة ابن خلدون المجملة من هذا الكلام البين القاطع فى تفصيل حضارة العرب وبيان عظمتها ؟ فهل الاستاذ الباحث المحقق صاحب دائرة المعارف الوجدية تغير على نفسه والعهد ليس ببعيد؟! ! ان الزمان حول والدهر بالافكار قلب !!

وقد ذكر جورجى زيدان فى كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) بحوثا ضافية عن الحضارة العربية القديمة ، وتكاد تتفق عبارته وعبارة دائرة المعارف الوجدية لفظا ومعنى فى بعض المواضع ، ولا ندرى ماشأن هذا الاتفاق ، فلعله - كما يقولون - من وقوع الحافر على الحافر . ولولا التطويل الذي

لا يتسع له المقام ولا يزيد في الفائدة كثيرا لأوردنا من كلامه شيئا ، ولكننا نكتفي منه بهذه الجملة التي قالها عن السبئيين : « ولم يكن عالم التجارة يستغنى عنهم ، فزهت بلادهم ، واتسعت ثروتهم ، وامتدت سيادتهم إلي أطراف الجزيرة شمالا وشرقا واحتفروا الترع ، وبنوا السدود ، وحولوا الرمال إلى تربة خصبة ، وبنوا القصور والمحافد والهياكل ، وتفننوا بتزيينها ، وزخرفها ، وشادوا حولها الأسوار واغترسوا الحدائق حتى صارت البادية التى يهلك سالكها من العطش جنة آهلة عامرة » ثم قال : « قال أغاثرسيدس : وللسبئيين فى منازلهم ما يفوق التصديق من الآنية والأوعية على اختلاف أشكالها من الفضة والذهب وعندهم الأسرة والموائد من الفضة والرياش من أفخر الانسجة وأغلاها ، قصورهم قائمة على الأساطين المحلاة بالذهب ، أو المنزلة بالفضة ، يعلقون على أفاريز منازلهم وأبوابها صحائف الذهب مرصعة بالجواهر ، ويبذلون فى تزيين قصورهم أموالا طائلة لكثرة مايدخلونه فى زينتها من الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة وغيرها من المواد الثمينة » . تأمل أيها القارىء فى صحائف التاريخ ، فهل ترى مثيلا لهذا الترف ، أوضريبا لتلك الحضارة ؟ وهل تقع كلمة ابن خلدون في حضارة العرب بمكان من هذا الوصف الذى كتبه عنها الكاتبون بالأسلوب التمحيصي ؟ ! !

ولا يدهش القارىء هذا الوصف متسائلا من أين لتلك البلاد هذا الثراء الغامر والذهب الزاخر ؟ فان المؤرخ اليوناني « استرابون » يقول : « إن الذهب لا يعدن في بلاد العجم ، لكن فى بلاد العرب » . وقد كشفت الابحاث التنقيبية التى قام بها

الكومندور « كروفورد » على مسافة أربعمائة ميل شرقى (عدن) عن مدينة (اوفير) التي جاء ذكرها فى سفر الملوك الثالث من التوراة ، وأن سليمان عليه السلام جلب منها فى سنة واحدة ستمائة وستة وستين قنطارا من الذهب ، ويقول « كروفرد » : إذا أمكن دراسة تلك المنطقة دراسة وافية فالمظنون أن تكون فيها معادن ذهب تفوق ما فى بلاد الترنسفال .

وقال الاستاذ احمد أمين فى كتابه « فجر الاسلام » عن حضارة العرب القديمة : « أما الحضر من العرب فهم أرقى من ذلك كثيرا ، يسكنون المدن ، ويقرون فيها ويعيشون على التجارة والزراعة ، وقد أسسوا قبل الاسلام ممالك ذات مدنية كاليمن والغساسنة فى الشام واللخميين فى العراق » وقال : « كان عرب الحيرة أرقى عقلا ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم » وقال . : « القسم الجنوبي كان يعيش عيشة قرار ، وتغلب عليه الحضارة »

أما ماذكره القرآن الكريم مشيرا إلى معالم تلك الحضارة الباهرة فكثير نكتفي ببعضه ، فقد جاء في شأن عاد قول الله تعالى : « أتبنون بكل بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون » . وقال فى قصة ثمود : « أتتركون فيما هاهنا آمنين فى جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » ، وقال : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله » . والذى عرف مهيع

القرآن فى القصص يعلم أن وراء هذه الاشارات التى سيقت للعبرة والتنبيه حياة واسعة قائمة على وسائل الحضارة من الزراعة والصناعة وهما من مقومات المدنية كما يقول الاستاذ وجدى فى تعليقه .

وجاء فى سورة سبأ : « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور » وجاء فى سورة النمل فى قصة هدهد سليمان : « فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » إلى أن جاء فى نفس القصة : « قالت (أى صاحبة العرش العظيم) يأيها الملأ إنى ألقى الى كتاب كريم . إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا على وأتوني مسلمين . قالت يأيها الملأ أفتونى فى أمري ماكنت قاطعة أمرا حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر اليك فانظرى ماذا تأمرين . قالت إن الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون . وإنى مرسلة اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون » .

هذا أصدق القول ، وأحسن الحديث . هذا القرآن الحكيم يصف من مظاهر الحضارة فى الدولة السبئية العربية مالا يستطيع أحد دفعه ، فهو يحدثنا عن نظام حكومى ومجتمع سياسى بلغ أرقى ماوصلت اليه أمة من الامم فى تلك العصور . فكيف اذا تكون الحضارة والتمدن والنظام الدولى الرفيع؟

فهل سمع التاريخ فى الأمم العريقة فى الحضارة قديما بنظام حكومى تتمثل فيه تلك المظاهر الاجتماعية التي حكتها الآيات الشريفات مع ماهو معروف عن أسلوب القرآن القصصى من الاقتصار على موضع العظة والبلاغ ؟

تأمل أيها القارىء هذا التصوير البديع الذي يمثل لنا حياة أمة عظيمة ، لها دين معروف المشرع في الأمم الماضية ، لأن عبادة الكواكب ، ولاسيما الشمس ، اتخذت بين النحل الدينية مكانا مبينا ، ولها حكومة منظمة يقوم عليها عرش عظيم ، كما يصفه القرآن الحكيم . وتأمل هذا الأدب النظامى الذى يتجلى فى تلك المحاورة الشورية فى شأن يتعلق بكيان الدولة

أفتراك ترضى لعقلك ان يصدق أن أولئك المستشارين فى مجلس الملك كانوا غير مستنيرى التفكير ؟ وهل ترى اذا قست الغائب على الشاهد أن أولئك المفكرين يرضون لأمتهم حياة الجهالة والأمية ؟ ألايحق لنا أن نقول مستندين إلى القرآن الحكيم : إن العرب الأقدمين هم معلمو الدنيا نظام الشورى والحكم الدستورى في طراز يتلاءم وطبيعة الزمن والبيئة ؟ ! ! !

الاثر الفكرى والادبى

للحضارة العربية

ينكر الأستاذ «محمد فريد وجدى» أن يكون للعرب قبل الاسلام أدب بمعناه الفنى ، لأن العرب فى رأيه أمة أمية ، وأن الأمية كانت الصفة المميزة لها من أقدم أيامها .

والكلام فى فنية الأدب يحتاج إلى تحديد معنى هذه الفنية التى أطلقها الأدباء المحدثون دون تشخيص معناها ، والذى ينظر فى عبارات الكاتبين الذين أطلقوا هذه الكلمة فى كتاباتهم يرى اختلافا فى تحديد مفهومها يدل على أنها دخيلة بهذا الثوب على الأدب العربى . فان أريد بها نظام إنشائي كالذى كان فى كتابة الانشاء على عهد العباسيين مثلا ، وإخراج رسائل منمقة ، وكتب مزورة كرسائل عبد الحميد بن يحيى ، وعبد الله بن المقفع ، والجاحظ ، وأضرابهم من الكتاب ، فهذا مالا نستبعد وجوده فى ممالك العرب المتحضرة في اليمن ، والعراق ، والشام ، على عهد البعثة الاسلامية وماسبقها ، ويدل لنا ـ بعد الذى قدمناه من تاريخ الحضارة العربية ومظاهرها الراقية ـ مارواه أبو هلال العسكري فى الصناعتين عن الحارث بن أبى شمر أحد ملوك غسان أنه كان يقول لكاتبه المرقش : « إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء ، بمعنى غير ما أنت فيه ، فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ ، فانك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن يمذق

نفرت القلوب عن وعيها وملته الاسماع ، واستثقلته الرواة» . (١) ومما رواه أيضا أبو الفرج في الأغاني : أن حماز بن زيد جد عدى بن زيد الشاعر المشهور علمته أمه الكتابة فى دار أبيه ، فخرج من أ كتب الناس ، وصار كاتبا للنعمان الأكبر ، وكذلك ابنه زيد ، وحفيده عدى الذى تعلم الكتابة والكلام بالفارسية حتى خرج من أفهم الناس بهما .

وإن عنى بفنية الأدب التعبير الصحيح الواضح الجميل عن موضوع من موضوعات الحياة التى تتصل بالانسان وبيئته فى أسلوب من أساليب البلاغة الأدبية ، فهذا مالا يخالجنا شك فى وجوده عند العرب فى كل مواطنهم حضرا وبدوا ، كما يشهد بذلك أدبهم نثرا وشعرا ، وهذا هو المعنى الذى قام عليه البحث في موضوع «الحياة الأدبية عند العرب قبل الاسلام »، أى الاستعداد للفهم والأفهام فى وضوح وجمال .

أما حديث الأمية ، وأنها كانت الوصف المميز للأمة العربية من أقدم أيامها ، فهذا أحوج إلي أن نكشف عنه الغطاء حتي يتبين موضع النزاع فيه ، فنقول :

العرب أمة قديمة العهد بالوجود ، اشتهر منها شعوب متوغلة فى القدم ، وقامت منها دول وممالك لعبت فى التاريخ القديم أدوارا جليلة ، وتعاقبت فيها أجيال إثر أجيال . وقد جرت عادة المؤرخين أن يقسموهم إلى ثلاث طبقات : الطبقه الأولى : العرب العاربة ، وهم عاد وثمود والعمالقة ، ومن انتظم فى سلكهم . الطبقة الثانية : العرب المتعربة وهم القحطانيون الذين كانوا معاصرين

---

(١) هكذا عبارة الصناعتين ص ٣٥١ طبعة الاستانة

لاخوانهم من العرب العاربة ومظاهرين لهم على أمورهم ، كما يقول شيخ المؤرخين ابن خلدون ، ومنهم دول حمير ، وسبأ ، والتبابعة وجرهم . الطبقة الثالثة : العرب المستعربة وهم الاسماعيلية والعدنانية ، ولم يتنبه المؤرخون القدماء لدولتين من دول العرب القديمة فى الوجود والحضارة ، وهما الدولة الحورابية ، والدولة المعينية ، وقد ذكرهما المؤرخون المحدثون .

وكل هذه الطبقات والدول كان موطنها الأصلى جنوب جزيرة العرب وسواحلها من أرض اليمن وماصاقبها ، ماعدا العرب المستعربة ، فهم وإن كانوا فرعا من دوحة جرهم اليمنية التى رحلت الى الحجاز منذ أقدم الأزمنة ، لكن لما امتاز بهجدهم اسماعيل عليه السلام من شرف النبوة والرسالة ، وذيوع الذكر ، وكان أول موطن له أرض الحجاز مسكنا لجرهم بعد رحلتها ، جعل أول وطن لهم الحجاز ، ومن هنا أجمل بعض المؤرخين التقسيم ، فقالوا : عرب الجنوب ، يعنون العرب العاربة ، والعرب المتعربة ، وعرب الشمال ، يعنون المستعربة .

وقد خص الله أرض الجنوب من الجزيرة العربية بخصوبة الأرض ، ووسائل الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فقامت فيها تلك الحضارات العظيمة ، والممالك الفخمة التي تقدم الحديث عنها ، وظل أثرها باقيا الي عصر الاسلام ، ثم حدثت أحداث كونية ضربت أسباب الحياة هناك ضربة قضت عليها ، فلم يبق للسكان مناص من الارتحال ، فابذعروا في أرض الجزيرة شمالا ، وشرقا وغربا ، فمنهم من لم يقو على هجير الصحراء وزمهريرها ، فسار الى المشارف والأطراف ، ومنهم من قعد به اليأس بعد فداحة النكبة ، فثوى فى المفاوز والبطاح ، وأسس اللخميون

منهم على ساحل الفرات دولة المناذرة بالحيرة ، وشيد الغساسنة صرح مملكتهم فى مشارف الشام ، فكانوا فى العراق والشام المجددين لملك العرب وحضارتهم .

هذا القسم من العرب ، وهو الأصل والكثرة الأولى للشعب العربى ، لا يمكن أن يقال فيه إن الأمية كانت أثيرة عنده وإنها كانت الوصف المميز له من أقدم أيامه ، لأنه لا يتصور أن تقوم فى أمة من الأمم مدنية عظيمة كالتي حدثنا بها الاستاذ الباحث المحقق « محمد فريد وجدي » فى دائرة المعارف عند هؤلاء العرب ، ولا تعمل على محو الأمية ، وتستبق الى ميادين العلم والمعارف ، وليس لذلك مثيل في التاريخ ولا يعرف في أي عهد وجد هذا النوع من الحضارة مؤاخيا للأمية والجهالة ؟!!

وهذا يقرره الأستاذ الفاضل في صلب تعليقه على مقالنا حيث يقول : « وليس فى الأرض أمة من أول وجودها الى اليوم إلا كانت فاتحة نهوضها رفع الأمية عنها ، أو عن عدد كبير من آحادها » . وأولئك العرب لم يكونوا فى فاتحة النهوض وإنما كانوا قد بلغوا ذروته واقتعدوا سنامه ، بشهادة دائرة المعارف الوجدية كما رأيت فيما سقناه لك من عباراتها الصريحة ، فلم يتخلف هذا القانون فى الأمة العربية؟ أليست من طينة البشرية؟ ! وفوق هذا فقد أثبتت الأبحاث التنقيبية الكتابة والعلم للعرب الأقدمين بصفة قاطعة ، بل أثبتت لهم وجود مدارس نظامية للتعليم الأولى ، فقد حدثنا الأستاذ وجدى نفسه فى صدد الحديث عن دولة حمورابى العربية بقوله فى الدائرة : « وقد وجد الباحثون آثار

مدرسة لتعليم الأطفال ، فيها حجارة عليها دروس للأطفال من حساب ولغة وخط » (تأمل) والأستاذ وجدى عينه يأبى كل الاباء أن لا يظهر أثر تلك الحضارة العظيمة الفكرى والأدبي ، فهو يقول فى عرض الرد على جورجى زيدان صاحب تاريخ التمدن الاسلامى الذى زعم أن « العرب على اختلاف القبائل والبطون قلما نبغ فيهم شاعر ، أو خطيب ، أو حكيم ، أو كاهن ، إلا بعد دخولهم فى القرن الأول قبل الهجرة » : نقول (القائل الأستاذ وجدى): « هذا القول — أى قول جورجى زيدان المتقدم — من الغرابة بمكان ، فان الأمة التى قامت منها الدول العظيمة كالمعينية والسبئية والحميرية ، فنبغ فيها الصناع والزراع والمهندسون (تأمل) الذين تمكنوا من بناء سد مأرب ، والقصور الشامخة التي وصفناها هنا قبل الاسلام بعدة قرون ، لا يتصور أن لا ينبغ فيها شاعر أو خطيب أو حكيم (تأمل) أو كاهن إلا بعد دخولها فى القرن الأول قبل الهجرة »

هذا كلام الأستاذ الفاضل بنصه وفصه ، فهو إذا لا يتصور انقطاع الصلة بين تلك الحضارة التى قامت فى الدول العربية العظيمة ، وأثرها العلمى والاجتماعى . ولا يتصور أن لا ينبغ الأثر الفكرى والأدبى لها . ويلزمه جزما القول بوجوب ظهور ذلك الأثر في جميع مراحل الأمة التاريخية حتى لا يكون نهوضها دفعة واحدة في القرن الأخير قبل الاسلام كما يزعم جورجي زيدان. وهذا الذى قاله الاستاذ الفاضل في دائرة معارفه هو ماقلته فى مقالى الذى علق عليه ونصه : « هل من المعقول أن تبلغ أمة من الأمم مابلغه العرب من عظمة الملك فى قديمهم (كما قال ابن خلدون) ولا يكون لها من الثقافة الفكرية والمعارف الأدبية شيء » . فالحمد لله لقد تلاقينا مع

الاستاذ الفاضل على حقيقة واحدة ، هى ثبوت حضارة فخمة للأمة العربية ووجوب ظهور أثر تلك الحضارة فى الحياة الأدبية . فليت شعرى فيم كان إذاً ذلك التعليق الطويل العريض ؟ ! !

نعم : ولكن الأستاذ وجدى يقول : « فتاريخ هذه الطبقة البائدة من العرب يجب (سبحان الله : هكذا على طول الخط !) أن يغفل فى بحث حالة العرب قبل الاسلام لغموضه وتغلغله فى القدم ، ولما حدث من الانقلاب الذريع فى كيان الأمة العربية بعده »

وفى الحق ان هذا تفكير غريب من رجل طال عهده بمعالجة البحث والاطلاع على أساليب الكتاب فى الشرق والغرب ، وله جولات هنا وهناك ، وتميز بأنه باحث اجتماعى !

نعم : هو تفكير غريب ، لا يفهم إلا على أنه ضرب من التحكم ، أو القضايا الخطابية التى فقدت أدلتها ، وإلا لوجب إغفال تاريخ جميع الأمم القديمة كالمصريين واليونان والرومان والفرس والهنود والصين وسواهم ، لغموضه وتغلغله فى القدم ، ووجب أيضا قطع كل قديم عن كل حديث إذا غمض القديم ، ووجب إعدام التاريخ ورفعه من برامج الدراسة فى جميع مدارس ومعاهد العلم فى العالم ، ووجب وقف عمل الباحثين المنقبين على آثار الأمم الماضية ، بل لوجب تعطيل مباحث العلماء الذين يبحثون عن الأجناس البشرية لمعرفة الصلة بينها ، ومدى ترقيها فى تكوينها ! !

أما تعليل وجوب الاغفال بالغموض ، فهو أعرق فى الغرابة ، لأن التاريخ

العربي لم ينفرد بهذا الغموض، بل هو كـكل تاريخ قديم في حاجة الى البحث والكشف عن حقائقه التي دلت أوائل التنقيب في مواطنه على ثروة تاريخية علمية تعاظم كل تاريخ في الدنيا، فهو من هـذه الجهة كتاريخ المصريين مثلا . قال الاستاذ وجدى في دائرة المعارف : «لايزال فى تاريخ العرب في الجاهلية شيء من الغموض على كثرة ماتكلم فيه المتكلمون وخاض في لجحه الخائضون» . وقال تحت عنوان (الآثار العربية والتاريخ) : «للآثار فائدة كبيرة جدا فى كشف تواريخ الامم ، فقد كان تاريخ المصريين لا يزال غامضا لولا مادونوه من أخبارهم على آثارهم ومعابدهم . كذلك للعرب آثار باليمن والحجاز (تأمل) وغيرها ، عليها نقوش حميرية (تأمل) . بالقلم المسند (قلم عربي) أو نقوش آرامية بالقلم النبطى وغيره ، فلما اهتدي باحثو أوربا الى أماكنها قصدوها لحل رموزها ، وكشف النقاب عن تاريخ العرب»

ولا أدرى لعمر الحق لم يشرع الاستاذ الفاضل بعد هذا التصريح الذى سوى بين تاريخ العرب وتاريخ المصريين ذلك التهيب ، والتهرب من كشف تاريخ العرب والبحث عنه لازالة مافيه من غموض ؟ وماذا يكون موقفنا لو أزيح الستار عنه ، وظهرت من ثناياه حضارة عربية باهرة ؟ أفنكذب الواقع المحسوس ونقول إن فى ذلك غضا من قيمة الرسالة المحمدية ؟ أفما كان الأجدر أن ننقب عن الحقائق لنأخذ العدة لها في موقفها من الانقلاب الاسلامى ؟

وأعجب من التعليل بالغموض التعليل بالانقلاب الذريع الذى طرأ على الأمة العربية . ولا ندري كيف يكون حدوث انقلاب عظيم فى كيان أمة من الأمم موجبا لأغفال تاريخها وطرحه من الوجود؟ وهذا الانقلاب الاسلامى العظيم الذى غير كيان

العرب حصل مثله فى كل الأمم التى انضوت تحت لواء الاسلام ، فانه غير معالم كل أمة فى دينها وآدابها ، وتشريعاتها ، ونظامها الاجتماعى ، فان زعم الاستاذ الفاضل للعرب خصوصية فى هذا الشأن كانت تلك الخصوصية هى ميزة العرب وخصيصتها بالمقام الرفيع فى الاسلام .

هذا شأن عرب الجنوب ، ومن تفرع منهم من عرب العراق ، وغساسنة الشام . حضارة ، فائقة ، ومدنية باهرة ، وعلم يتمشى مع تلك الحضارة ، وتفكير أدبى يتناسب مع طبيعة الحياة هناك حيث لا أمية ، ولا جهالة . ولكن مدنية زاخرة ، وعلم يدل على الاستعداد الممتاز فى طبيعة هذا الشعب الكريم .

أما عرب الشمال ، وهم الذين سماهم المؤرخون : الاسماعيلية ، نسبة الى جدهم الأعلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام ، والعدنانية نسبة الى عدنان أحد أجدادهم الأدنين من ولد اسماعيل ، فهؤلاء كانوا يسكنون الحجاز ، أى الجزء الشمالى من الجزيرة العربية ، وهو إقليم فقير مجدب ، عديم النبات ، قليل الماء . فالحياة الاجتماعية فيه لا تقوم على الزراعة والصناعة والتجارة المنظمة ، وهى قوام المدنية وعصب الحضارة ، لأنها تدعو إلى الاستقرار ، واستعمار الأرض . وابتناء الدور وإنشاء الحدائق والبساتين ، واتساع العمارية ، وقيام نظام اجتماعى يجمع الأمة فى ظل دستور تساس به وتمشي على سننه كما هو شأن الأمم المتحضرة

وطبيعى أن ينشأ قوم يعيشون فى بيئة هذا شأنها بدوا تغلب عليهم حياة الظعن والارتحال ، والتحارب على أسباب البقاء ووسائل الحياة .

مع ذلك لم يعدم هذا القسم لفتة من لفتات التاريخ القديم ، تحدثت عن شيء فيه من الحياة الاجتماعية والأدبية تختلف قوة وضعفا، ولكنها ترسم له صورة تدل على ما كان له من المتاع في ظل مرحلة قد تسمي حضارة في بعض وجوهها، لما وجد فيها من الوسائل الحيوية ، ولما عثر عليه المنقبون من النقوش والآثار

تحدث التاريخ أن أول من اتطن الحجاز من العرب، العمالقة والعاديون، ثم هاجروا منه الى اليمن ، والشام ، ومصر ، لأسباب معاشية، وقد خلفهم عليه شعب جرهم ، وهو شعب يمنى قديم ، يذكر بعض علماء التاريخ أن تاريخه يرجع الى عهد الدولة المعينية ، في اليمن ، والدولة الحمورابية في العراق ، ومهما يكن من الأمر فتاريخ الجرهميين من أدخل تواريخ العرب في الغموض .

وأقصى ما يمكن معرفته من أنبائهم يبدأ من عهد هجرة ابراهيم الخليل بابنه اسماعيل عليهما السلام الى الحجاز ، وإنزاله مع أمه هاجر المصرية النجار في بطحاء مكة ، لأن الحياة العربية حينئذ هناك اتخذت اتجاها جديدا ، أعدها للظهور التاريخي شيئا ما ، فابراهيم عليه السلام ، شخصية ممتازة ، له حديث وذكر واسع عند كثير من الامم ، لابد أن يكون قد ترامى الى العرب من جيرانهم شيء من أنبائه وما اقترن باسمه من حوادث تاريخية خطيرة ، وهو خليل الله ورسوله بالحنيفية السمحة . وهو الذى ثار في وجه أمة بأسرها شعبا وحكومة ، فكسر أصنامها وحقر ديانتها ، وجادلها ، وناضلها ، فلما عجز باطلهم أمام حق النبوة ألقوه في النار فغير الله طبيعتها وجعلها عليه بردا وسلاما تأييدا لخليله ورسوله عليه السلام ، فمجيء ابراهيم الى الحجاز ، وتخليفه ولده بأرضه ،

لابدأن يلفت نظر التاريخ الى تلك البلاد التى هاجر إليها ، ثم تردده عليها لزيارة ولده ، وبناؤه بها البيت الحرام فى مكة . وجعله حرما آمنا محجوجا ، لابد أن يوجه نظر العرب قطان هذا البلد ومجاورى هذا البيت الى هذا النبى الكريم ، والى أسرته ومكانتها ودياناته الجديدة ، والى الرغبة في الارتباط بها ، فكان أن أصهر فيهم ابنه اسماعيل ، وتزوج « سيدة » بنت مضاض الجرهمى ، ثم « رعلة » بنت عمرو الجرهمى ، ونسل منهم نسلا عظيما ، قاموا بأمر الدين فى قومهم ، وكانت ولاية البيت الحرام فيهم ، وهم أول من نشر الخط العربى فى دوره الثانى بأرض الجزيرة العربية ، وأبوهم اسماعيل عليه السلام أول من كتب به كما رواه السهيلي.
وفى كتاب « الصاحبي » لابن فارس ، عن ابن عباس رضى الله عنهما : « أول من وضع الكتاب العربي اسماعيل عليه السلام ، وضعه على لفظه ومنطقه » . وجاء فى كتاب (الف باء) للبلوى(١) : « أن عبدالله بن جدعان عثر على كنز عظيم فى شعب من شعاب مكة ، وفى داخل الكنز مقبرة ، وعند رءوس أصحابها ، ألواح من رخام ، وفيها عظات ، وأبيات من الشعر ، وفى أحدها مكتوب : أنا نفيلة بن عبد المدان بن خشرم بن عبديا ليل بن جرهم » وهذا الخبر إذا صح كان فيه دليل على حياة تاريخية قيمة للعرب الحجازيين فى نظر الاسطوريين وأنصار النقوش والآثار ، وكان حافزا لهمم العلماء إذا سنحت لهم الفرصة للبحث عن تاريخ هؤلاء تحت رمال الصحراء ، وهو يشبه من بعض الوجوه تاريخهم فى اليمن .

---

(١) مجلة الزهراء

ويحدثنا أبو الفرج فى الأغاني : أن (حلف الفضول) الذى أسسته قريش قبيل البعثة المحمدية فى دار عبد الله بن جدعان لنصرة الضعفاء، ومنع الظالمة من ارتكاب الظلم إنما قلدت فيه عملا كان لجرهم من قبلهم .

وفى القرن الرابع عشر قبل الهجرة غزا « بختنصر » بلاد العرب فانحاز كثير منهم الى الحجاز ، ولقيه عدنان ، وهو يومئذ زعيم الاسماعيلية ، واليه انتقل النسب ، بجموع من العرب الحجازيين : ودارت الحرب بين الفريقين بمكان يقال له « ذات عرق » فأصيب العرب بخسائر ، ولحق جيش بختنصر الجهد الشديد ، ورأى جدب أرض العرب ، ووعورة مسالكها فارتد عنها خشية على جيشه من الهلاك دون جدوى :

فى هذا الوقت شب معد بن عدنان تحت ظلال السيوف ، وبروق الأسنة فصقلته التجارب ، وعركته المحن ، فاذا هو سيد العرب مضاء وعزما وجدا وحزما ونبلا ، تجمع حوله بقية السيف من العرب ، وهم أنمى عددا ، وألقوا اليه قيادهم ، ونشأ بنوه في كنفه يرون فيه مثال الرجل الكامل للزعامة العربية : فما عديدهم حتى كاثروا الحصى ، وفاخروا النجوم ، وذابت فيهم بقية جرهم وانحلت عصبيتها باشتداد عصبيتهم .قال ابن خلدون : « ومن عدا عدنان من ولد اسماعيل قد انقرضوا ولم يبق لهم عقب ولذلك عرفت بالعدنانية » وفى صبح الأعشى : « واعلم أن الموجودين من العرب من ولد اسماعيل عليه السلام . كلهم من بنى عدنان بن أدد » وكان بنو عدنان مجتمعين فى أكناف مكة فى التئام كلمتهم ، وائتلاف أهوائهم ، تضمهم المواسم وهم يد على من سواهم ، حتي أسرعت إليهم الفتنة ، ووقعت بينهم الحروب

لـكثرتهم ، وضعف أسباب العيش فى بلدهم ، فتفرقوا فى أرجاء الجزيرة شرقا وغربا وجنوبا .

من هذا الاستعراض التاريخى المجمل يظهر لنا أن هذا القسم من العرب له تاريخ قديم دلت عليه بعض الآثار التى كشفت فى الحجاز وكان فيه شيء مامن النهوض الاجتماعى تمثل فى نحو حلف الفضول . وكانت فيه نبوة اسماعيل واليهم رسالته بالدين القيم ، ورسالة الأنبياء أرقى أنواع الاصلاح الاجتماعى وأفضل ضروب التهذيب الأدبى ، فان تاريخ النبوات ورسالات الله إلى الناس ينبؤنا أن الله تعالى لا يبعث رسولا في أمة إلا استصلاحا لشئونها الخلقية ، والاعتقادية ، وأحوالها الاجتماعية بعد أن تكون الجهالة الفكرية قد أفسدت عليها حياتها ، واسماعيل عليه السلام واحد من هؤلاء الرسل الكرام بنص القرآن الكريم . قال الله تعالى : «واذكر فى الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا . وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا » . ولا مرية أن رسالته كانت إلى هؤلاء العرب الذين نشأ بينهم ، وأصهر فيهم وعاش طول حياته معهم ، وقد صرح به علماء السير ، ودل عليه الواقع فانه لم ينقل الينا مطلقا نقلا تاريخيا صحيحا أن اسماعيل عليه السلام فارق الحجاز إلا مرة أو مرتين كما تقول التوراة : إنه حضر دفن أبيه ابراهيم . وهى غيبة قليلة لا يعقل فيها أن يكون أرسل إلى قوم آخرين ، وقد تقدم الحديث المروى عن ابن عباس أنه أول من كتب الكتاب العربي ، فما المانع أنه علمه بنيه وقومه فانتشر بينهم ، كما دلت عليه النقوش التي عثر عليها هناك ؟ إذاً يكون المعقول مرور مرحلة تاريخية على هذا الشعب كان فيها على دين الحنيفية بدعوة

اسماعيل ، وكان فيها بعيدا عن الجهالة الاجتماعية . ولكننا لا نستطيع أن تقدر مدى هذه المرحلة التي أعقبها دور بداوة وجد الاسلام العرب عليها ، فهذبهم وعلمهم واستصلح بهم الانسانية ونشر على الأرض هداية كاملة كانوا هم حملتها الى الناس كافة .

فليس علينا من حرج أن نسلم أن الأمية كانت شائعة في العرب على عهد البعثة المحمدية ، . ولاسيما عرب الحجاز ، فى هذا الدور الطارئ من البداوة والجهالة ، وعلى هذا الأساس نستطيع أن نتعرف فى يسر سبيل الآيات القرآنية التى أوردها الأستاذ وجدي في تعليقه محتجابها على أن الأمية كانت أثيرة لدى العرب وأنها كانت الصفة المميزة لهم من أقدم أيامهم ، وهى سهلة الفهم لاتتعارض مع ما أثبتناه من حضارة العرب القدامى ومعارفهم الأدبية والاجتماعية ، وبعض هذه الآيات ينفي العلم عن العرب كقوله تعالى : « ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » . وقد ذكر علماء التفسير أن العلم المنفي هو علم الدين ، وهو الذى يدل عليه سياق الآية فى قوله « بكتاب من قبل هذا » لأن الاشارة فيه للقرآن ، وكذلك الكتاب فى قوله تعالى : « أم لكم كتاب فيه تدرسون » المراد به كتاب فى الشئون الدينية كما يدل له سياق الاستاذ وجدى نفسه للآية فى معرض الاحتجاج بها . قال صاحب الكشاف وغيره في تفسيرها : أم لكم كتاب من السماء فيه تدرسون أن ماتختارونه وتشتهونه لكم .

وقد أبنا لك فى صراحة أنهم على عهد نزول القرآن كانوا فى دور جهالة اجتماعية

وديبة . وبعض تلك الآيات يصف العرب بالامية ، كقوله تعالى : «هو الذي بعث فى الأميين رسولا » وكقوله تعالى حكاية عن اليهود : « ليس علينا في الأميين سبيل» وهذا ونحوه لا يصح مطلقا أن يبقى على عمومه ، للتوفيق بينه وبين ماثبت بطريق قاطع من محو الأمية عن أجيال من العرب ودول منهم . فلم يبق إلا تخصيصه بقوم النبي صلى الله عليه وسلم الذين صرحنا أنهم كانوا فى طور بداوة وجهالة طارىء عليهم ، فكانوا فيه أميين ، وكانت الأمية أغلب عليهم ، وهم الذين كانوا مخالطين لليهود من الجاليات الاجنبية فى شمال الجزيرة العربية ، فأطلقوا عليهم هذا الوصف . وهذا التخصيص أظهر وأوجب فى قوله تعالى : «وما أرسلنا اليهم قبلك من نذير» لأنه قد أرسل الله قطعا في قدامى العرب هودا الي عاد ، وصالحا الى ثمود ، وفى الحجازيين اسماعيل الى جرهم .

قال شيخ المفسرين جار الله الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى : (لتنذ قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون) : « كقوله ما أنذر آباؤهم . وذلك أن قريشا لم يبعث الله اليهم رسولا قبل محمد صلى الله عليه وسلم » .

وقال ابن المنير فى كتاب (الانتصاف) : « وإنما قامت الحجة على العرب بمن تقدم من الرسل اليهم كأبيهم اسماعيل وغيره . والمراد بقوله تعالى : (ما أتاهم من نذير) يعنى ذرية العرب فى زمانه عليه الصلاة والسلام ، إذ لم يبعث اليهم نذير معاصر» .

وقال الامام الحاذق فخر الدين الرازى فى تفسير الآية السابقة :

(المسألة الأولي) كيف قال «لتنذر قوما ما أتاهم من نذير» مع أن النذر سبقوه ؟

الجواب من وجهين : أحدهما معقول والآخر منقول . أما المنقول فهو أن قريشا كانت أمة أمية لم يأتهم نذير من قبل محمد ﷺ . وهو بعيد فانهم كانوا من أولاد ابراهيم وجميع أنبياء بنى اسرائيل من أولاد أعمامهم . وكيف كان الله يترك قوما من وقت آدم الى زمان محمد بلا دين ولاشرع ؟ وإن كنت تقول بأنهم ماجاءهم رسول بخصوصهم يعنى ذلك القرن فلم يكن ذلك مختصا بالعرب بل أهل الكتاب أيضا لم يكن ذلك القرن قدأتاهم رسول وإنما أتي الرسل أباءهم وكذلك العرب أتى الرسل آباءهم .

وأما المعقول وهو أن الله تعالى أجري عادته على أن أهل عصر إذا ضلوا بالكلية ولم يبق فيهم من يهديهم يلطف بعباده ويرسل رسولا ، ثم إنه إذا أراد طهرهم بازالة الشرك والكفر من قلوبهم ، وإن أراد طهر وجه الأرض باهلاكهم . ثم إن أهل العصر ضلوا بعد الرسل حتي لم يبق على وجه الأرض عالم هاد ينتفع بهدايته قوم وبقوا على ذلك سنين متطاولة فلم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام فقال (لتنذر قوما ما أتاهم من نذير) أى بعد الضلال الذى كان بعد الهداية لم يأتهم نذير اه .

والذى نفيناه عن العرب أمية عامة لكل مراحل التاريخ ، شاملة لجميع آحاد الأمة العربية ، مقرونة بالجهل والبلادة الفكرية ، أما أمية أغلب عرب الشمال ،

وهم قوم النبي ﷺ الذين بعث فيهم فلم ننفها ولا نستطيع نفيها . على أنه قد كان فى عرب الشمال كتاب يقرءون ويكتبون، فى هذا العهد وقبيله . ويدل عليه فى عهد البعثة حادثة فداء أسرى بدر التي احتج بها الاستاذ، وهى عليه لا له ، فان هؤلاء الأسرى الذين فدوا أنفسهم بتعليم نفر من المسلمين الكتابة كانوا عربا قرشيين ، ويدل على وجود الكتابة قبل عهد البعثة بنحو قرن قول الحارث بن حلزة اليشكرى فى معلقته المشهورة :

حذر الجور والتعدى وهل ينـ قض مافى المهارق الاهواء

وكذلك مارواه أبو هلال العسكرى فى الصناعتين إذ يقول : « وكان أكثم بن صيفى إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتابه : « افصلوا بين كل منقضي معنى ، وصلوا إذا كان الكلام معجونا بعضه ببعض »

ولباب الأمر أن القرآن وهو أصدق خبرا وصف العرب بالأمية ، وهذا مالا يمتري فيه مسلم ، ولكن أي العرب أراد القرآن الحكيم ؟ نقول : إنه أراد العرب الذين عناهم بقوله : « وما أرسلنا إليهم قبلك – يامحمد – من نذير » وقد علمت عدم صحة التعميم فى هذه الآية ، وأن التخصيص فيها واجب . وهو الذى صرحنا به فى آخر مقالنا الذى علق عليه الأستاذ الفاضل « محمد فريد وجدى » .

مناقشات فرعية

(١) يكرر الأستاذ الفاضل في تعليقه أنه لم يصلنا من واحدة من دول العرب كتاب مخطوط ، ولا أتانا خبر عن وجود أثارة من علم فيها ، ولم يشتهر فيها فلكى ، أو طبيب، أو فنان .

والغريب في هذا أنه يقوله عن الدول العربية التى عمرت اليمن والتى قال فيها كما تقدم نقله عنه : «أما مدنية اليمن فحدث عنها ولا حرج» ويضيف اليها اللخميين والغساسنة . وقد كان يكفى في تفنيد هذا الكلام ماسبق نقله وتوضيحه من طريق إثبات الحضارة الفائقة التى يجب أن تكون فاتحتها محو الأمية، ولكنا نحب أن نتقصى مافى التعليق من شبه، ولا سيما هذه الشبهة لأن الأستاذ اتكأ عليها وكررها .

يعرف الناس من بدائه القضايا العلمية أن عدم الدليل ، وبالأحرى عدم العثور عليه ، لا يدل على عدم المدلول . فعدم وصول كتاب مخطوط لنا من واحدة من دول العرب المتحضرة لا يلزمه عدم وجود الكتاب المخطوط .

وكذلك عدم إتيان خبر عن وجود أثارة من علم عندهم لا يدل على عدم وجود فيض من المعارف والعلوم كان معروفا لهم ، ولم يصلنا ولم نطلع عليه لعجزنا عن البحث والتنقيب . ووصول هذا الينا عن أمم كثيرة غير العرب لا يلزمه وصول مثله عن العرب إذا كان موجودا عندهم، لاختلاف الأسباب والوسائل والأحداث .

على أنك عرفت أيها القارىء أنه قد وصلنا كثير من النقوش والمخطوطات الدالة على بعد النظر و كمال المعرفة ، والدالة على وجود مدارس نظامية ، وكتابات أدبية فنية كما نقلناه لك عن أكثم بن صيفى وعن الحارث الغسانى ، وعن عدى بن زيد الحيرى . وعن الحارث بن حلزة اليشكري.

ويستطيع أى إنسان أن يتسائل : ما الفرق فى هذا بين العرب وغيرهم ؟ فهل كان الأستاذ الفاضل ، ومعه آلاف من الباحثين يعرفون شيئا عن تاريخ المصريين القدامى وحضارتهم وعلمهم قبل العثور على حجر رشيد وحل رموزه ؟ وهل سمع أن ملكا منهم اسمه (توت عنخ أمون) كان موجودا ، ولعب دورا دينيا فى تاريخهم على صغر سنه قبل كشف آثاره فى الأعوام القريبة الماضية؟ أترى ماذا يكون مقام هؤلاء الباحثين من العلم والبحث والانصاف، لو تعجلوا الحكم على المصريين قبل كشف تاريخهم المطمور تحت الرمال ، وقالوا عنهم إنهم أمة جاهلة أمية لأنه لم يصلنا عنها كتاب مخطوط أو أثارة من علم ؟! لم لا يكون تاريخ العرب كتاريخ جيرانهم المصريين سيكشف عنه العلم كما كشف عن بعضه على ما ظهر فيما ساقه لنا الاستاذ الفاضل «محمد فريد وجدى» مفصلا فى الدائرة ؟

(٢) يقول الأستاذ الفاضل: « فلو كان عند العرب أى فن أدبى أو غيره لنقله عنهم رواة اللغة الذين اختلطوا بهم وبغيرهم من القبائل ، ولبثوا بين ظهرانيهم سنين ، فهل كان هؤلاء الرواة يحرصون على الألفاظ والأساطير هذا الحرص كله ولا ينوهون بكلمة عن أدب العرب وعلومهم ، وهم رواد الأدب العربي ، وقد

جشموا أنفسهم الحياة وسط القبائل سنين لدراسة أسبابه ، فلم يجدوا غير ألفاظ اللغة فحفظوها عنهم ونقلوها الينا »

والذين مارسوا الأدب العربى ممارسة درس وتحليل. وعرفوا طرائق علماء اللغة ورواتها فى الأخذ عن العرب ، يعلمون علما أوليا أن أولئك الرواة العلماء كانوا يتجافون بجنوبهم عن الأخذ من أدب الحواضر العربية ، ويتحاشون الرواية عن أهلها لتطرق اللحن الى لغتهم ، ولين ألسنتهم ، وليها بمستعجم الكلم لاختلاطهم بالأمم المجاورة ، كالفرس والأحباش اختلاطا جعل اللسان العربى في تلك الحواضر لا يصفو صفاءه فى البادية حتى أن الاصمعي وأبا عبيدة كانا يقولان في عدى بن زيد ، وهو شاعر فحل ، حيرى متحضر ، (عدى بن زيد فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها) وقد أبان العلماء أن علة هذا التنقيص إقامة هذا الشاعر في الحضر ، فقال محمد بن سلام في الطبقات : « وعدى بن زيد كان يسكن الحيرة ويراكز الريف فلان لسانه وسهل منطقه » .
وقال ابن قتيبة فى كتاب الشعر والشعراء : « وكان عدى يسكن الحيرة ويدخل الأرياف، فثقل لسانه واحتمل عنه شيء كثير جدا وعلماؤنا لا يرون شعره حجة» .

ومن لطائف البحث فى هذا المقام أن الاستاذ الفاضل «محمد فريد وجدى» يقرر هذا الذى قررناه ويعتذر به عن الرواة فى رده على جورجى زيدان فهو يقول فى دائرة معارفه : «أما قوله — جورجى زيدان — ولا يعترض بضياع أخبار من ظهر منهم قبل ذلك التاريخ فقد حفظوا أخبار عاد وثمود ، وصالح وهود ، قبل ذلك بقرون متطاولة ، فلو نبغ منهم في القرون الأخيرة قبل الاسلام

شاعر ، أوخطيب لما ضاع ذكره ضياعا تاما . فأعجب مما مر - تأمل - فانه قد ثبت أن العرب قد أضاعوا تاريخ دول برمتها منهم كدولة حموار بى ببابل ، والدولة المعينية باليمن ، ولا يخفي أن هذه الدول كانت من أعلى الأمم المعاصرة كعبا فى الحضارة - تأمل - ولا يمكن أن تخلو مثلها من الحكماء والعلماء ، والخطباء ورجال الحرب والسياسة - تأمل - فأحر بالعرب بعد إضاعتهم تاريخ دولهم أن يضيعوا تاريخ أفرادهم . ثم إننا ننبه القراء هنا الى أمر جدير بالنظر وهو أن رواة أخبار الحرب وأيامها إنما وجهوا همتهم لحفظ اللغة ، واستجماع شواردها ، لا لحفظ تاريخ دولها ، وما كانوا يذكرونه عن العرب مما يختص بالتاريخ فانما كانوا يتلقفونه من رجال البادية تلقفا ، وينقلونه على سبيل التفكه والاغراب ليس إلا ، فلا عجب أن أضاع العرب تاريخ الأفراد المعدودين في الجاهلية .

ولقد كان رواة اللغة الذين عاشروا العرب أنفسهم يعترفون بأن ماضاع من شعر العرب وحكمتها لا يدخل تحت حصر »

هكذا يقول الاستاذ ، الفاضل ، فهو إذن يعترف صراحة بأنه ليس فى عدم نقل الرواة لنا علم العرب وحكمتهم ، وتاريخ نوابغهم ، دليل ولا شبه دليل على عدم وجود شيء من ذلك ، وعدم نقل الرواة لا يفيد أكثر من أنهم وجدوا علما وحكمة وتاريخا ولم يهتموا بنقلها ، لأن همهم كان محصورا فى نقل اللغة الفصحى لشرح معاني كلمات القرآن والحديث ، أولأنهم لم يجدوا أمامهم شيئا من ذلك ، ويكون قد ضاع بسبب بعض العوامل التي توافرت على

ضياعه ، وقد يكون من أهم تلك العوامل ماصارت إليه الأمة من طور البداوة والأمية ، فلم تتسع الصدور لحفظه والاذهان لوعيه ، ولم يقيد بكتابة فضاع مع ماضاع من التاريخ القديم .

ومن أهم العوامل فى ضياع أدب العرب وعلمهم وحكمتهم الانقلاب الاسلامى . فانه غير على الأمة حياتها في جميع وجوهها . قال أحمد بن فارس فى كتاب « الصاحبي » : « كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم فى لغاتهم ، وآدابهم ، ونسائكهم ، وقرابينهم ، فلما جاء الله جل ثناؤه بالاسلام حالت أحوال ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع الى مواضع أخر بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت ، فعفى الآخر الأول ، وشغل القوم بعد المغاورات ، والتجارات ، وتطلب الارباح ، والكدح للمعاش في رحلة الشتاء والصيف ، وبعد الاغرام بالصيد والمعاقرة والمياسرة ، بتلاوة الكتاب العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وبالتفقه فى دين الله عز وجل ، وحفظ سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع اجتهادهم فى مجاهدة أعداء الاسلام . فصار الذى نشأ عليه آباؤهم ونشأوا عليه كأن لم يكن » . وهناك عوامل أخرى تختص بأدب الحضارة العربية التى أدرك الاسلام آثارها في العراق والشام لا محل لذكرها الآن .

(٣) يقول الاستاذ الفاضل : « فاذا كان العرب أمة أمية ، وهو ما لاسبيل الي إنكاره ، فكيف يعقل أن يكون لديهم أدب بمعناه الفني ؟ أين عهد مثل هذا

الأمر ، وفى أى جيل حتي يعهد عند الأمة العربية ؟ »

عرفت أيها القارىء الكريم أن هناك سبلا لا نكار أن تكون الأمة العربية أمة أمية على العموم والاطلاق . ومن أوضح تلك السبل سبيل دائرة المعارف الوجدية فى التحدث عن حضارة العرب وعظمتها ، مما ثبت به وبغيره أن وصف العرب بالأمية فى القرآن خاص بقوم النبى ﷺ من الحجازيين على عهد البعثة المحمدية ، وبعد انتهاء مرحلة البعثة الاسماعيلية . وأن بقية العرب ، وهم الكثرة كانوا فى آثار حضارة أدركهم عليها الاسلام . فكيف يعقل ألا يكون لديهم أدب بمعناه الفنى ؟ وأين عهد مثل هذا الأمر ، وفي أى جيل ، حتي يعهد مثله عند الأمة العربية؟

المعهود حسيا أن الأمة إذا كانت قد بلغت من الحضارة مبلغا عظيما كانت فى أرقى درجات التفكير الأدبى ، وهذا شأن الأمة العربية فى الأزمان السابقة على الاسلام بقرون : تدرجت في الارتقاء حتى نضج أدبها ، واستوى تفكيرها ، وتوارثت أجيالها هذا النضج الفكرى ، فلم يمحه طروء فترة اضمحلت فيها الحضارة ، وطرأت في مكانها البداوة ، ولذلك اعتبرها القرآن الكريم المثل الأعلى للبشرية في هذا النضج الأدبى ، فوجه اليها خاصة التحدى باسلوب القرآن البلاغى ، وأشركها مع غيرها فى إعجازه المعنوي .

هذه سنة الله فى الخلق ، ولا يعقل أن تتخلف على الاطلاق ، وقد اعتبر الله تخلفها شذوذا عن نواميس الطبيعة التى أجرى حياة الأمم على مقتضاها . فكان يجبه العرب على عدم استجابتهم لنداء العقل ، والجرى على طرائق التفكير الصحيح الذى استأهلوا به هذه المرتبة الأدبية السامية ، فردد عليهم التقريع

بنحو قوله : أفلا تعقلون ، وقوله : أفلا تذكرون . ولو لم يكن للعرب نضج أدبى ، وتفكير سديد ماصح أن يتوجه لهم هذا التقريع .

(٤) ومن أعجب العجب فى هذا التعليق قياس الشعر العربى فى عصر فتاء اللغة العربية وقوتها واكتمال شبابها ، وبراعة بيانها وسحر أسلوبها بشعر عوامنا وعوام كل أمة . يقول الأستاذ الفاضل : « ربما اعترض علينا معترض فقال ألم يصلنا عن الجاهلية شعر ؟ أليس الشعر فنا من فنون الأدب ؟

نقول : نعم ولعامتنا شعر ، ولعوام كل أمة أشعار بلغاتها المختلفة »

ليسمع رواة الأدب العربى قديما وحديثا ، ولتسمع ثقافة القرون الأولى أن الشعر العربى الذى كان ولايزال دعامة قوية من دعائم المعارف الأدبية ، وأساسا لبيان معاني القرآن الكريم والسنة النبوية ، والذى لايزال على كثرة البحث والتحليل والنقد صامدا قويا أمام الأعاصير العاصفة على اللغة والأدب ، والذى خلد لغة العرب ومجدهم ، والذى قامت عليه النهضة العلمية في القرنين الأول والثانى للامة الاسلامية قبل أن تأتيها العلوم الفلسفية والمعارف الأجنبية ، والذى صاحب تلك العلوم وتبوأ بينها مكانا عليا ، لايزال فيه على عظمته ، والذى أبقى للبلاغة العربية طابعها العريق ، والذى نهج للفصاحة سبيلا لم يتعاظمه فيها أسلوب كلام ، حاشا أسلوب القرآن الكريم ، فانه أزري بكل أساليب البلاغة والفصاحة على الاطلاق ، والذى لم يجد فطاحل البراعة وصفا للقرآن حينما قرع بآياته أسماعهم ، وخلب بسحر بيانه ألبابهم إلا أن يقولوا عنه إنه شعر .

هذا الشعر العربي يقول عنه الاستاذ « محمد فريد وجدى » إنه كشعر عامتنا

وعوام كل أمة . وظريف جدا أن نجد الأستاذ نفسه قد داخله العجب من نحو هذا الذى زعمه على الشعر العربى، فقد قال فى صدد الرد على جورجى زيدان بعد أن نقل عبارة أبى عمرو بن العلاء :ما انتهى اليكم مما قالت العرب إلا أقله ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير : « والعلم والشعر لا يكونان إلا من علماء شعراء . فأين هم ، وماهى أسماؤهم » ؟

وقد اعتبر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الشعر علما فقال فيما نقله محمد بن سلام فى الطبقات : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه » . فكيف صح قياس هذا الشعر الذى يسميه الفاروق علما على شعر عوامنا وعوام كل أمة ؟ لعل هذا منطق جديد يرمى الى وضع جديد فى برامج اللغة العربية والأدب العربي . ولعله يتصل بفكرة القائلين بدراسة ما يسمى الأدب العامى ليزحم الادب العربى ويقلل من شأن اللغة العربية ، وإلا فما هذه الغميزة فى الشعر العربى ؟

(٥) يقول الأستاذ الفاضل : « ألم يكن جميع العرب الذين أسلموا جاهليين فى أمسهم ؟ فلو كان لديهم أثارة من علم فى أى موضوع من المواضيع مما كانوا يمارسونه على عهد الجاهلية ، أما كانوا يحملونها معهم فى الاسلام ، فتعرف عنهم وتنسب إليهم » ؟

قلنا : نعم كانوا فى أمسهم عربا لهم علم أدبي تمثل واضحا فى لغتهم التي يقول عنها الأستاذ وجدى : إنها « أرقي اللغات الحية على الاطلاق ، وأشملها لمقومات الآداب والعلوم من الالفاظ والتراكيب » . وإلا فكيف كان لها هذا

الرقى لو لم تكن نهدت في أمة مفكرة لها معارف وآداب تتناسب مع حالتها التى وصفها لنا التاريخ ؟ واللغة أول مظاهر الحياة في الامة . فهل جاء هـذا الرقي والاشتمال على مقومات الآداب والعلوم للغة العربية بعد الاسلام ؟ لاأظن عاقلا يدعى ذلك ، لأن القرآن وهو المثل الأعلى للعظمة البلاغية والمقومات الأدبية إنما نزل بلغة العرب قبل أن يعرفوا الاسلام . وقد اتسعت له هـذه اللغـة الشريفة اتساعا أوحى الى شاعر مصر حافظ ابراهيم قوله على لسانها :

وسعت كتاب الله لفظا وغاية   وما ضقت عن آى به وعظات

وكل ماجد بعد القرآن من الأساليب المختلفة هو دون القرآن بلاريب ، فلا التفات اليه .

وتمثل أيضا فيما ظهر على يد بعض الصحابة حين كتبوا المصحف الشريف . قال أحمد بن فارس : « ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة وغيرهم بالعربية كتابتهم المصحف على الذى يعلله النحويون فى ذوات الواو ، والياء والهمز والمد والقصر ، فكتبوا ذوات الياء بالياء ، وذوات الواو بالواو ، ولم يصوروا الهمزة إذا كان ماقبلها ساكنا في مثل (الخبء) و (الدفء) و (الملء) فصار ذلك كله حجة ، وحتي كره من العلماء ترك اتباع المصحف من كره »

وظهر أيضا فى نحو ماحدثنا به المرزباني في الموشح : أن سوادة أخا بشر بن

أبى خازم الشاعر الجاهلى المشهور ، قال لأخيه بشر : إنك لتقوى ، قال بشر : وما الاقواء ؟ قال قولك :

ألم تر أن طول الدهر يسلى ويسنى مثل ما نسيت جذام

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغوا علينا فسقناهم الى البلد الشامى

فقال بشر : قد تبينت خطئى ولست بعائد .

وفيما اشتهر عن جماعة كبيرة من الشعراء من تحبير الشعر وتنقيحه فى أشهر ، منهم كعب بن زهير الذى أخذ ذلك عن أبيه زهير صاحب الحوليات . أنبأنا صاحب الصناعتين : « أن زهيرا يعمل القصيدة فى ستة أشهر ، ثم يهذبها فى ستة ، ثم يظهرها فتسمى الحوليات » أترى فيم كان يقضى زهير هذا الزمن لو لم يكن على علم بفنون العربية ونقد الشعر ؟ وبم كان يهذب قصائده لو كان جاهلا عاطلا من المعرفة بالعلم الأدبى ؟ . وقد جرى على طريقته تلميذه الحطيئة الذى كان يقول فيما يرويه الجاحظ : « خير الشعر الحولى المنقح »

وفيما ذاع فى تاريخ الأدب قديما وحديثا من تحكيم النابغة بين الشعراء فى سوق عكاظ ، وقصته مشهورة مع حسان بن ثابت بمحضر الخنساء ، ونقده عليه بيتيه :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا ، وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : انت شاعر ، ولكنك قلت : جفانك وأسيافك ، وفخرت

بمن ولدت ، ولم تفخر بمن ولدك . قال أبو بكر الصولى : فانظر الى هذا النقد الجليل الذى يدل عليه نقاء كلام النابغة وديباجة شعره .

وفيما تواتر عنهم من إعظام القرآن الكريم قبل أن يدخل الايمان فى قلوبهم . فقد روى أن أعرابيا سمع قوله تعالى : «فلما استيأسوا منه ، خلصوا نجيا» فقال : «أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا» . وذكر أبو عبيدة أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : «فاصدع بما تؤمر» فسجد وقال سجدت لفصاحته :

فكيف إذن أدركوا جلال القرآن ، وجمال أسلوبه ، وسحر بلاغته وأسرار إعجازه حتى تطامنت له رءوسهم بعد التحدى القارس ، والتقريع الشديد أن يأتوا بسورة مثله ؟ . أمر هذا التحدى دائر بين أمرين :

(الأمر الأول) : أن العرب كانوا على درجة من التفكير الناضج والاستعداد الأدبى ليستطيعوا إدراك أسرار إعجاز القرآن البلاغى وفهم أسلوبه الأدبي حتى تقوم به عليهم الحجة .

(الأمر الثانى) : أن يكون العرب جهلاء لا أثر للتفكير عندهم ولا وجود للحياة الأدبية بينهم ، وحينئذ لا يصح أن يتوجه اليهم التحدى بشىء لا يفهمونه ، ولا يدركون الاسباب التى من أجلها كان معجزا لهم ، ولا تقوم به حجة عليهم ، والمسلمون مجمعون على أن العرب فهموا بلاغة القرآن حق فهمها ، ولكنهم عجزوا عن الاتيان بمثلها ، مع كونهم كانوا على نهج من البلاغة لم تلحقهم فيه أمة من الامم . قال القاضي عياض فى الشفاء : «أول وجوه إعجاز القرآن حسن تأليفه والتئام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه

وبلاغته الخارقة عادة العرب ، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشان ، وفرسان الكلام ، قد خصوا من البلاغة والحكم مالم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة اللسان مالم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب مايقيد الألباب ، جعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة يأتون منه على البديهة بالعجب ويدلون به الى كل سبب ، فيخطبون بديها في المقامات وشديد الخطب ، ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ، ويتوصلون ، ويرفعون ، ويضعون ، فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللآل ، فيخدعون الالباب ، ويذللون الصعاب ، ويذهبون الاحن ، ويهيجون الدمن ، ويجرءون الجبان ، ويبسطون يد الجعد البنان ، ويصيرون الناقص كاملا ، ويتركون النبيه خاملا ، منهم البدوى ذو اللفظ الجزل ، والقول الفصل ، والكلام الفخم ، والطبع الجوهرى ، والمنزع القوى ، ومنهم الحضرى ذو البلاغة البارعة ، والالفاظ الناصعة ، والكلمات الجامعة ، والطبع السهل . والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية . وكلا البابين . فلهما فى البلاغة الحجة البالغة ، والقوة الدامغة ، والقدح الفالج ، والمهيع الناهج . لايشكون أن الكلام طوع مرادهم . والبلاغة ملك قيادهم ، قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها . ودخلوا من كل باب من أبوابها وعلوا صرحا لبلوغ أسبابها ، فقالوا فى الخطير والمهين ، وتفننوا فى الغث والسمين ، وتقاولوا فى القل والكثر ، وتساجلوا فى

النظم والنثر . فما راعهم إلا رسول كريم بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »

(٦) يغمط الاستاذ الفاضل «محمد فريد وجدى» الأمة العربية حقها ، ويقرر في تاريخها أشياء لا تتفق والحقائق التاريخية ، ويحاول الحط من شأنها مصورا لها أمة مهينة لم تستطع أن تحتفظ باستقلالها أمام الامم المعاصرة لها .

والذى أمعن النظر فى تاريخ العرب باخلاص وإنصاف يعلم أن الأمة العربية عاشت طول حياتها الحافلة أمة مستقلة استقلالا لم تحصل عليه أمة في الوجود . بل إنها استعمرت كثيرا مما جاورها من الممالك المعاصرة . ولم يذكر المؤرخون إلا حادثا واحدا توغل فيه بعض الغزاة (بختنصر) فى بلاد العرب ثم رجع مجهدا جيشه ممنيا بخسائر فادحة . وذكر الاستاذ وجدى في دائرة المعارف بعض غزوات لملوك الاشوريين والمصريين لم تتجاوز الأطراف التي لا تدخل فى صميم بلاد العرب وممالكهم العزيزة القديمة التى وصفها الله بالبطش والجبروت . ولم يحفظ التاريخ استعمارا أجنبيا لبلاد العرب إلا ما كان فى أخريات تاريخهم قبيل الاسلام من احتلال الاحباش لجنوب الجزيرة العربية وقد طردهم العرب بمساعدة الفرس وأجلوهم من بلادهم ، وبقيت البلاد تحت إشراف الفرس حتى جاء الله بالاسلام فأعاد للعرب عزها ومجدها .

***

كانت الأمة العربية منذ قرون كثيرة مستقيمة النهج على ما كانت عليه أعظم الأمم الفاضلة ، فيها حضارة ، وفيها ملك ، وفيها نبوات ورسالات من الله تعالى ،

وفيها علم ، وفيها أدب ، وفيها نظام اجتماعى ، وقد طال عليها الأمد في ذلك فنضجت عقولها وارتقت أفكارها ، حتى حدثت أحداث اجتماعية واقتصادية أصابت مرافقها فدمرتها ، وتقلص ظل الحضارة فيها ، وسادتها فى أواخر أيامها قبل البعثة المحمدية فوضى اجتماعية ، وجهالة للمعارف النظامية ، ونسيت كثيرا مما كان لها . ولكن الأثر الفكرى الذى توارثته ولم تؤثر عليه الأحداث هو الذى بقى لها من ماضيها قويا يغذيها فى حياتها الادبية الرفيعة ، فلما جاء الأسلام أدرك منها قوى كامنة سترها الزمن ، وحجبها عن النفاذ الى أعماق التفكير اضطراب الحياة الاقتصادية ، ووهن الرابطة الاجتماعية الذى كان نتيجة لازمة لتنازع البقاء ، ولاسيما فى شمال الجزيرة العربية من الحجاز وماوالاه . فوجهها الاسلام الى الحياة وأيقظ قواها الفكرية الخامدة ، وبعثها من ركودها ، وأحيا فيها عناصر العظمة الحيوية ، ودفع بها الى قيادة الانسانية وحمل لواء التاريخ من جديد . فبفضل الاسلام أصبحت الأمة العربية سيدة الأمم التى كتب لها بلوغ أقصى الغايات من النظام والعلم والحكمة مما لم يعرف له نظير فى التاريخ .

لباب البحث

(١) إننى تابعت فى مقالى ابن خلدون فى أن العرب قبل الاسلام بقرون « بلغوا الغاية من الحضارة والترف ، مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والاذواء . فطال أمد الملك والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع فلم تبل ببلى الدولة » .

والاستاذ الفاضل « محمد فريد وجدي » مدير مجلة الازهر أبى ذلك كل الاباء فى تعليقه على مقالنا بالمجلة . وقد أيدني فى متابعتى لابن خلدون بصورة قاطعة مفصلة واضحة بافضل وأدق مما قال ابن خلدون الاستاذ الباحث المحقق «محمد فريد وجدى» مؤلف دائرة المعارف الوجدية فى دائرته كما ظهر فيما سبق .

(٢) استنتجت من متابعتى لابن خلدون أنه لابد أن يكون لتلك الحضارة العربية أثر فكرى يرفع العرب عن درجة الامم الساذجة التي تعيش عيشة أولية كالزنوج مثلا . وسميت هذا الأثر « الحياة الادبية » وقد دللت عليها في مقالى . وفصلت ذلك فى ردى على تعليق الأستاذ كما هو واضح فيما تقدم

والاستاذ الفاضل « محمد فريد وجدى » مدير مجلة الازهر يأبى على كل الاباء فى تعليقه على مقالى بالمجلة أن يكون للعرب « حياة أدبية » فيها تفكير ناضج وآثار أدبية حية . ويرى أن شعرهم كشعر عوام وعوام كل أمة .

وقد أيدنى أشد التأييد فى استنتاجي الاستاذ الباحث المحقق « محمد فريد وجدي »

صاحب دائرة المعارف الوجدية في رده على جورجى زيدان بما أثبتناه فى هذه الرسالة

(٣) رأى الأستاذ الفاضل «محمد فريد وجدى» فى تعليقه أن القول بوجود حضارة تاريخية للعرب ، كالتي حدثنا بها ابن خلدون وتابعته عليها ، فيه غض من قيمة الرسالة المحمدية .

ورأيت أن وجود حضارة تاريخية للعرب لا يقرب من حمى الرسالة المحمدية، بل إن إنكار أن يكون للعرب حضارة قديمة وجعلهم أمة جاهلة بليدة ساذجة تعيش عيشة أولية ، لا أثر للتفكير فيها ، من أقدم أيامها ، هو الذى فيه غض من قيمة الرسالة المحمدية ، وقد دللت على ذلك بما يراه القارىء فى هذا البحث

(٤) فهم الأستاذ «محمد فريد وجدى» أن الأمية كانت أثيرة عند العرب، وأنها كانت الصفة المميزة لهم من أقدم أيامهم حتى فى زمن حضارتهم وملكهم فى دولهم العظيمة .

وفهمت أن الأمية التى وصف القرآن الكريم بها العرب إنما كانت صفتهم فى دور بداوتهم الطاريء عليهم بعد ذهاب ملكهم وحضارتهم ودياناتهم السماوية . وأيدنى فى فهمى حذاق المفسرين وأئمة الأدب واللغة وفطاحل التاريخ والابحاث الأثرية.

***

أما بعد . فان الاسلام شريعة ودولة (١) ولن تؤتي الشريعة أكلها شهيا

---

(١) فى النية إن وفق الله تعالى وأنسأ في الأجل أن أفصل هذا المعني فى رسالة خاصة .

بآدابها السامية ، وتشريعاتها الحكيمة ، وتعاليمها القويمة ، وسياستها العادلة ونظامها المحكم ، ولن تنفذ الى القلوب فتنير ظلماتها ، والى الأرواح فتهذبها ، والى الأخلاق فتقوم عوجها ، والى الشعوب الانسانية فتنشر بها العدل . وتقيم فيها القسطاس المستقيم ، وتخرجها من الظلمات الى النور - إلا إذا قامت على حراستها دولة إسلامية ، قوية الشوكة ، عزيزة الجانب ، مهيبة السلطان ، مرعية الحقوق عالية الكلمة ، صادقة الاخلاص للشريعة ، مستمسكة بعروتها الوثقى . ولن تكون هذه الدولة إلا من الأمة العربية العظيمة ، رضي الخياليون أو أبوا ، فالعرب هم جند الاسلام الأول ، بهم نصر الله دينه ، وهدى عباده ، ونشر عدله ، وجعل فى عزهم عز الاسلام ، كما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا ذلت العرب ذل الاسلام » وهذه حقيقة أيدها التاريخ الصادق ، فان الدولة حينما كانت عربية صريحة كانت راية الاسلام تخفق على المعمورة شامخة قوية ، ترفعها العزة العربيـة ، وكانت شريعة الاسلام نافذة حاكمة مهيمنة على الحياة ، ولما تفلت الأمر من يد العرب ، واستعجمت الدولة وهنت قوى الاسلام الدولية ، وانزوت شريعته الى صدور العلماء محفوظة متعطلة ، والى بطون الكتب مدونة سجينة .

واها للاسلام من المسلمين الجغرافيين ؟ ! ! . ان الخياليين ممن يعالجون الكتابة فى الشئون الاسلامية يبتهجون بهذه الكثرة الجوفاء من المسلمين الجغرافيين وهم كما وصفهم رسول الله ﷺ (غثاء كغثاء السيل) طمع فيهم عدوهم فستعبدهم واستذلهم ، حتى أصبحوا لا يدفعون عن أنفسهم ضيما ، ولا يغضبون لكرامة دينية

أوذاتية . يسيمهم عدوهم فى كل بقعة من بقاع الأرض الذل والخسف، وهم راضون ، خانعون ، جعلوا الجهاد فى سبيل الله كلاما ، واعداد القوة خيالا وتفرقوا شيعا وأحزابا ، فلا وحدة تجمعهم ، ولادين فى قلوبهم يردعهم « ياهادى الطريق جرت ، انما هو والله الفجر أو البجر » .اللهم إن المحنة قد تمت فأعز الاسلام بعز العرب ،وأعز العرب بعز الاسلام ،حتي يعود لدينك القويم الذي ارتضينه لعبادك خاتما لوحيك ورسالاتك مجده ، وتعود الى الانسانية فى مشارق الارض ومغاربها هدايتها الصادقة .

ياقارئ ! هذا بحث اختلست له الوقت اختلاسا ، وضعت فيه ما اعتقد أنه الحق الصراح لامراء ، ولاجدال ، هو منى بمنزلة العقيدة من المؤمن الصادق الايمان . ولى أعظم الأسوة فيما حكي الله تعالى عن نبيه نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام . « قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون »

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء)

ملاحـــظة

وقعت بعض أغلاط مطبعيه لاتخفى على فطانة القارىء مع قلتها ، أهمها فى ص ٣٩ س ١٧ كلمة إمن، وصوابها إحن، وفى ص ٤٦ س ٣ — جاءت عبارة (وكان أبو عبيدة الخ الفقرة) ومكانها فى ص ٤٥ س ١٦ عقب كلمة (ديك الجن) وفى ص ٤٧ س ١٢ - الفظارة - وصوابها الفطرة وفى س ١٣ - طبيعية المعدن وصوابها طبيعة المعدن ، وفي س ١٤ - مناقيهم ، وصوابها مناقبهم .